الديانات في أفريقيا السوداء

تأليف

هوبير ديشان

ترجمة

أحمد صادق حمدي

مراجعة

محمد عبد الله دراز

الكتاب: الديانات في أفريقيا السوداء

الكاتب: هوبير ديشان

ترجمة: أحمد صادق حمدي

مراجعة: محمد عبد الله دراز

الطبعة: 2022

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

فاكس: 35878373

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ديشان، هوبير

الديانات في أفريقيا السوداء/ هوبير ديشان، ترجمة: أحمد صادق حمدي، مراجعة: محمد عبد الله دراز – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

201 ص، 18*21 سم.

الترقيم الدولي: 8 – 473 – 991 – 977 – 978

أ – العنوان رقم الإيداع: 27195 / 2021

الديانات في أفريقيا السوداء



التعريف بالمؤلف

ولد الأستاذ (هوبير ديشان Hubert Deschamps) في 22 من يوليو عام 1900 ببلدة (رويان) وهي ميناء يقع على خليج (بسكاي) بمقاطعة (شارنت ماريتيم) بفرنسا. وتلقى علومه بمدرسة ليسيه دين يور ثم السوربون ونال درجة الدكتوراه في الآداب إلى جانب شهادات عالية أخرى، منها ليسانس الحقوق، ودبلوم اللغات الشرقية الحية.

بدأ حياته مدرساً بمدرسة الليسيه بمدينة الدار البيضاء بمراكش، ثم أستاذاً بمدرسة اللغات الشرقية الحية. وفي عام 1936 اختير مديراً مساعداً لمكتب (ليون بلوم) رئيس وزارة الجبهة الشعبية الأولى وقتئذ. وفي عام 1938 عين حاكماً لمستعمرة الصومال الفرنسي، ثم ساحل العاج، ثم السنغال، وشغل تلك المناصب حتى عام 1950، إذا أحيل إلى المعاش بناء على طلبه. وهو يشغل اليوم عدة مناصب علمية هامة.

وأما إنتاجه العلمي فقد بدأ منذ **1938**، وظل مستمراً إذا أخرج ستة عشر مؤلفاً أغلبها في الدراسات الأفريقية من قبائل، وديانات، ونظم اجتماعية، ولغات، وإحصاء. نخص بالذكر منها كتبه (نهاية الاستعمار) و(تنبه الوعي السياسي في أفريقيا) و (الديانات في أفريقيا السوداء) والأخيرين يدي قراء العربية. والمؤلف بصدد وضع كتابين عن تاريخ جزيرة مدغشقر وجغرافيتها ولهجات سكانها. وقد أعيد طبع بعض هذه الكتب مرات، وترجم بعضها إلى الإنجليزية والأسبانية واليابانية.

المترجم

مقدمة

1 – كلمة "أفريقية" التي نطلقها الآن على القارة كلها، كان الرومان، أيام حروبهم مع قرطاجنة إنما يطلقونها على جزء من الشمال الغربي للقارة (تونس الحديثة). والكتاب الذي بين أيدينا لا يتناول هذا الجزء الشمالي، المعروف من قديم بأنه يؤلف وحدة متجانسة مع بلاد البحر الأبيض المتوسط. وإنما يتناول بقية القارة حيث تستوطن القبائل الزنجية. وهذا هو الذي يسمى "أفريقيا السوداء".

2 – وقديماً جاب أرجاء القارة كثيرة من الرحالة والمستكشفين فوصفوا بلادها وشعوبها وصفاً سطحياً، يثير فضول القارئ بعجائب العادات والعقائد، وتغالوا في تصوير همجية قبائلها وظلماتها حتى دمغتها تلك الصفات وأصبحت في أذهان الناس حقائق لا تقبل النقض. إلى أن جاء القرن العشرون بحقائق جديدة مغايرة.

3 – وكانت الاستكشافات والفتوحات القديمة تقترن بنزعة الاستغلال والاضطهاد العنيف فاتجر الواغلون فيها بسكان البلاد وباعوهم بيع الرقيق في الدنيا الجديدة. ولوثت كل الدول أيديها بهذه التجارة الخاسرة لما كانت تدره من أرباح طائلة فاستنزفت معين السكان حتى أقفرت بذلك مناطق واسعة وتدهورت اقتصادياتها.

4 – ثم فترت هذه السورة على يد رجال حفزتهم إنسانيتهم أن يقفوا معارضين للمستغلين والمستبدين من الحكام، فاستطاعوا بعد جهود شاقة أن يحملوا الدول على تحريم تجارة الرقيق وعلى إدخال الإصلاحات التي تحسنت بها أحوال القارة فسادها الأمن والسكينة بل حظى بعض شعوبها بمجالس نيابية وأحزاب سياسية وحكومات مسئولة.

5 – وأدرك المستعمر البعيد النظر أن مصلحته المادية تعتمد كل الاعتماد على القوى البشرية في القارة واتضح له أن الكشف الجغرافي عن المجهول من أرض القارة كان عملاً سطحياً هيناً بالقياس إلى الكشف عن المجهول من أخلاق أهلها وعقائدهم وعوائدهم. ولذلك استنهض المستعمر هم رجال العلم والبحث إلى القيام بتلك الدراسات النفسية والاجتماعية فقاموا بها في استقصاء وتحقيق دقيقين وبذلك أصبحت الدراسات الأفريقية شعبة هامة من شعب العلوم الإنسانية في هذا العصر. وأفاد المستعمر من وراء تلك الدراسات أيما فائدة فقد وقف على مواطن الضعف والقوة في القبيلة واستغل ذلك لخدمة مصالحه المادة والإدارية.

6 – ولاحظ الباحثون في شئون أفريقيا أن الدين هو العنصر الفعال والقوة المحركة في حياة المجتمع الزنجي ولذلك اتخذوه نقطة ارتكاز في سائر أبحاثهم. وأفادت الهيئات التبشيرية من هذه الحقائق فوضعت منهجها على هذا الأساس وكان من نتائج ذلك أن ترجم الإنجيل إلى عدة لغات أفريقية كاللغة السواحيلية وغيرها.

8 – هكذا سبقتنا أوروبا إلى هذه الدراسات الأفريقية، وجعلتها جزءاً من تفكيرها وثقافتها ورسمت على ضوئها سياستها الإدارية والتبشيرية وكان حرياً بمصر أن تسبق الأمم الأخرى لا لأن صلة مصر بداخل القارة أقدم من أن يعرف أولها بل لأن حاضر مصر ومستقبلها ومركزها الجغرافي كل أولئك يفرض عليها أن تضاعف اهتمامها بشئون أفريقيا التي هي الوطن الكبير للأمة المصرية. وهذا هو هدفنا من نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية.

8 – قسم المؤلف كتابه إلى قسمين:

القسم الأول عن العقائد الوثنية في أربعة فصول:

حدد في الفصل الأول منها العقيدة الأساسية للمجتمع الزنجي (وهي الاعتقاد بالقوى الحيوية) وشرح ما لهذه العقيدة من أثر بليغ في حياة الفرد والمجتمع القبلي وخاصة عند قبائل البانتو والبامبارا والدوجون.

وفي الفصل الثاني تكلم عن الآلهة والعبادات وفكرة الوجود ويدرك القارئ منه تصورات الرجل القريب من البدائية عن وجود الله وعن نشأة الكون. وهو من أمتع فصول هذا الكتاب.

وأهم ما في الفصل الثالث وصفه لحفلات التلقين والختان وصفاً رائعاً مثيراً للمشاعر. يصور للقارئ أدق التفاصيل عن حياة ذلك المجتمع.

وفي الفصل الرابع يرسم المؤلف صورة عامة للديانات الوثنية القديمة والحديثة ومنه يخرج القارئ بفكرة واضحة عن الترابط الشديد بين الأحياء والأموات الطبيعية ترابطاً يبدو الإنسان فيه لا على أنه محور الكون بل على أنه صورة عارضة في لوحة الكون الكبرى.

والقسم الثاني عن الديانات السماوية، في فصلين:

(أولاهما): عن الإسلام ومدى انتشاره ووسائل انتشاره يخرج منه القارئ بأن جمهرة الدعاة له كانوا من المغاربة وأن انتشاره غالباً لم يكن بوسائل العنف ولكن بالتبشير السلمي الهادئ من جماعة إلى جماعة.

(وثانيهما): عن المسيحية وأساليب انتشارها ويستخلص القارئ منه أن المسيحية لم تأخذ في الانتشار السريع إلا بعد دخول جيوش المستعمرين وأفواج المستغلين وقد نوه المؤلف بالخدمات الجليلة التي قام بها المبشرون هناك في سبيل نشر الدين والتعليم والصحة وسط الغابات الكثيفة والمناطق الرطبة الحارة الخانقة وأشاد بالتضحيات العظمى التي قام بها هؤلاء حيث سقط الكثير منهم في ميدان هذا الكفاح.

9 – أما خاتمة الكتاب فمنتهى الدقة في التفكير والإيجاز في التعبير بحيث تعتبر قطعة أدبية رائعة. ويخلص منها القارئ إلى أن القارة السوداء قد دخلت اليوم في زمرة البشرية المتيقظة وأنها لفي دور تطور سريع بسبب ما دخل عليها من الأديان والآراء والأساليب الاقتصادية الحديثة وأنها مع ذلك لم تفقد شخصيتها فإنها لم تعتنق المدنية الغربية جمعاء

ولم تتخل عن موروثاتها القديمة جمعاء بل اتخذت سبيلاً وسطاً لم يتضح إلى اليوم ولكنه سيتضح إن عاجلاً أو آجلاً عندما تكتمل روح القومية بين شعوبها. فإن صيحة (أفريقيا للإفريقيين) قد بدأت تفعل فعلها حتى أن كل انتصار يحرزه شعب من شعوبها يعده الأفريقيون جميعاً انتصاراً لهم ضد الرجل الأبيض الذي كان تعصبه العنصري وسيطرته المتغطرسة هما السبب في تكتل القوى الأفريقية في جهة واحدة لرفع نيره عن كواهلهم. وما ثورات ماو ماو والبانتو ومراكش والجزائر وما استقلال مصر والسودان إلا مظاهر لهذا النضال ضد الاستعمار والمستعمرين،

المراجع

القسم الأول

العقائد الموروثة

"ما من نظام يشاهد بين قبائل
أفريقيا السوداء سواء أكان نظاماً
اجتماعياً أم سياسياً أم اقتصادياً إلا
وهو يرتكز على فكرة دينية أو أن
الدين هو حجز الزاوية فيه – تلك
الشعوب التي ظن أحياناً أنها مجردة
عن الفكرة الدينية هي في الواقع من
أشد شعوب الأرض تديناً".

موريس دلافوس

من كتابة حضارات الزنوج في أفريقيا

الفصل الأول

الشخص والأسلاف والطبيعة

(أ) الشخص والقوى الحيوية

يرى الأب (تمبلز Temples) أن القوى الحيوية هي أسمى القيم عند قبائل (بانتو Bantous) وما العبادات والشعائر لديهم إلا وسائل تهدف كلها إلى غاية واحدة، وعي تزويد الحياة البشرية بمدد من القوة، وضمان بقائها وصلاحيتها لأبعد مدى، وذلك باستخدام قوى الطبيعة. وما السعادة إلا الفوز بأعظم قسط من القوى الحيوية. وما التعاسة إلا نقص وخور يصيب تلك القوى. فالمرض والألم والإعياء والفشل في العمل كل هذه أعراض تدل على نقص تلك القوة، فترى الفرد في قبائل (بانتو) يعترف بأنه "مات وانتهى" إن هو أحس بأي عرض من تلك الأعراض. وعندهم أن الكائن الحي هو القوة؛ وأن القوة هي كنه الشيء وماهيته، متميزة عن ظواهره وأعراضه.

وقد تتركز هذه القوة الحيوية في أجزاء رئيسية من البدن، كالعين والكبد والقلب والجمجمة. مع مشاركة أعضاء الجسم فيها بدرجة أقل وتبقى تلك القوى فيها حتى لو فصلت عن الجسم، مثل قلامة الظفر أو خصل الشعر. بل الأشياء التي يملكها الشخص ويعتاد استعمالها بالملامسة تقتبس جانباً من قوته، كما تظهر تلك القوة في منطقة وإشارته. حتى أن الاسم ليس مجرد لفظ يدل على مسمى، وإنما هو ترجمة لحقيقة الشخص، فإذا غير اسم الطفل وسمى باسم جديد، (كما يجري ذلك في حفل الختان، إيذاناً بدخول الطفل مرحلة المراهقة والإطلاع على الأسرار) فقد خلق الطفل حينئذ في عرفهم خلقاً جديداً.

على أنه يلوح أن فكرة القوى الحيوية هذا لا تخص قبائل (البانتو)، وإنما نجدها منتشرة بين كثير من القبائل الأفريقية الأخرى، بل إنها عندهم لا يختص بها الإنسان الحي، بل تعم الأموات، وتدور في الطبيعة بأجمعها، فتسري فيها كأنها سيال كهربائي يربط بينها. وقد تتركز تلك القوى في شخص أو محراب أو مكان ما يكون بمثابة محطات تقوية لذلك التيار الكهربائي وقد تتنوع هذه القوى ويكون لكل منها طابع خاص.

فمثلاً تعتقد قبائل (الفانج) في منطقة (جابون) بوجود قوة تعرف باسم (أيفور) Evur يمكن أن تكون شريرة أو خيرة، ولا يفوز بها كل إنسان. فإذا ولدت مع الطفل دل على حلولها فيه ثقل وزنه عند ولادته. وقد يحصل عليها المرء في أثناء حياته إما اقتباساً من شخص معمر، وأما في أثناء القيام بشعائر دينية. وأعجب من هذا أن (الأيفور) متحرك يستطيع أن ينفصم عن الجسم، ويعيش بمفرده، أو يجتمع بأشباهه في وئام أو خصام. ويزعم سحرة القبيلة أنهم يستطيعون إطالة آجالهم باستخدام (الأيفور) في قتل أعدائهم. حتى ينتقل إليهم (أيفور) القتيل؛ ويزعمون أنه إذا فتح بطن القتيل وجد بداخله حيوان معين (أبو جلمبو).

ويوجد الاعتقاد بمثل هذه القوى في شمال الكنغو؛ وتعرف هناك باسم (اليما) Elima وينسبونها إلى الموتى من الأجداد. وتوجد (اليما) أيضاً في بعض الأماكن، وفي الحيوان الذي يحمل اسم القبيلة، المسمى (طوطم) Totem وهي أشد ما تكون تركزاً بالجسم في المرارة أو الكبد أو الطحال. والساحرات القديرات في القبيلة يتميزن بضخم هذه الأعضاء.

وتعرف القوى الحيوية عند قبائل الأقزام باسم (مجبه) Megebe تربض في دكنة الظلال، أو تسير في الدم. فإذا توفى الشخص انفصمت عنه، وانتقل جزء منها إلى الطواطم، ويتسرب الجزء الآخر مع أنفاس الأب المحتضر، فيتلقاها ابنه البكر إذا حنا على أبيه عند وفاته وفتح فا، ليتلقى هذا السر من أبيه.

وتعرف القوة الحيوية بين قبائل (دوجون) باسم (نياما) Nyama وهي قوى مختزنة في دم الشخص الحي. ومظاهرها الحياة والحركة والكلام.وقد وصفها العلامة (جريول) Griaule بأنها طاقة دائمة لا شعورية، موزعة بين الحيوان والنبات والأشياء التي تعمر أرجاء الطبيعة والكائنات التي فوق الطبيعة ووظيفتها أن تصون كيان الجسم الذي يحملها. وهي إما موقوتة فيه فيعرض له الموت، وإما دائمة فيكتب له الخلود. وصفتها مدام (ديترلين) Mme Dieterlen بقولها: "إن القوى الحيوية (النياما) لها قدرة الانتقال من مكان إلى مكان، وأنها قابلة للتجزئة وقابلة للتغيير كماً وكيفاً، وأنها سريعة التأثر بشوائب النقص فتنقل هذه الشوائب إلى جسم صاحبها. فإذا انفصلت عن بدنها المعتاد أصبحت قوة خطيرة يخشى شرها.".

و (النياما) قوة تنتقل بالوراثة من الأب لولدهن وتتضاعف في أثناء الحمل بالنياما الموروثة عن أحد الموتى من ذوي القربى. وقد تكتسب قسطاً من نياما (القناع الكبير) Grand Masque أثناء بعض الاحتفالات الدينية العظيمة لديهم، والتي تسمى (سيجي) Sigui كما تتزايد أيضاً بالنياما الكامنة في بعض الأطعمة الخاصة التي يتغذى بها الإنسان.

ولكل فرد محراب خاص في بيته للمحافظة على ما يملكه من (النياما). والمحراب يتكون من كرتين أو كأسين من طين يابس، يصنعها الأب لطفله، يوضعان في واجهة المسكن أو في أحد أركانه، ويرمز أحدهما للرأس، والآخر للجسم وتوضع في الأخير آثار الطفل، ثل قلامة أظفاره وأهدابه وخصل من شعره وقطرات من دمه.

أما (النياما) عند قبائل (مندانج)؛ وكذلك (الكيلة) Kélé عند قبائل (لوبي) فهي عبارة عن تيارات ضارة تصيب الإنسان وتلصق به إذا تجول بين بعض الأشجار، أو اقترب من مجرى ماء أو من حيات مقتول، أو ارتكب معصية ما. ويتطلب التطهر والبرء منها أدعية طويلة معقدة.

وها هنا نلمس مدى إدراكهم لفكرة العدوى بالنجاسة. وفي عرفهم أن بعض الناس يولدون غير أطهار. فمثلاً تعتقد قبائل (الدوجون) أن النساء وطوائف الصناع كالحدادين والحذاءين والسحرة قوم أنجاس، وأن بعض الأشياء تسبب النجاسة أو تزيدها، ومن ثم جاء تحريم بعض الأفعال، وتحريم لمس بعض الأشياء. ومن هنا أيضاً فرضت بعض العبادات للتطهر ورفع الأحداث، وتحرم قبائل (يوروبا) على المرأة في أيام الطمث أن تعد الطعام لبعلها، فإذا ذهب للصيد وجب عليها أن تبقى طاهرة محافظة على عفتها، وأن تمتنع عن أكل اللحم، كما أن الاتصال الجنسي محرم في فترة الطمث وطوال أيام الرضاع (ومن هنا نشأت عادة تعدد الزوجات بينهم). وفي عرفهم أن اليد اليسرى والجانب الأيسر من الجسم غير طاهرين. وإلى جانب هذا الحشد من المحرمات الاجتماعية قد توجد محرمات خاصة يفرضها رب الأسرة على أعضائها.

الشخص وعقيدة تعدد الأنفس:

1 – عند السودانيين[1] تقول مدام (ديترلين) أن قبائل (بامبارا) تعتقد بوجود نسمة مزدوجة لكل إنسان: أولاً النفس (ني) Ni وثانياً التوءم (ديا) Dya. وتعتقد أن الطماطم إذا امتصتها المرأة كونت في جوفها جنيناً رخواً، يحيله الاتصال الجنسي إلى كائن حي. وهذا الكائن الحي يرث كلتا النفسين (النسمتين) عن آخر من يموت من الجماعة. ونسمة (ني) تطلق على الوفير والشهيق وهي التي تنطلق عندما ينام الإنسان. وأما (ديا) فهي توءم الإنسان فإن كان ذكراً فتوءمه أنثى وبالعكس. وهي الظل الذي يمتد على الأرض، والخيال الذي ينعكس على صفحة الماء. وللإنسان وراء ذلك خليقتان، هما (تيريه) Téré وانزو Wanzo أما (تيريه) فهي الطبع الذي يفسد عندما يرتكب محرماً؛ ويمكن حينئذ أن تصبح قوة مستقلة خطيرة (نياما). وأما (وانزو) فيعبر بها عن الشر الغريزي فيه (وهذه يمكن التطهر منها في حفلات دينية خاصة، تعرف باسم حفلات التلقين والاطلاع على الأسرار (عند الختان).

[1] نريد بالسودان هنا معناه الجغرافي الواسع، الذي يشمل السودان الفرنسي والسنغال وغينيا الداخلية والنيجر الفرنسي ونيجيريا الشمالية.

والدم عندهم هو حامل الخصائص الروحية وناقلها. فالتضحية بالقربان تخلص منه هذه الأسرار، وتغذي بها المعابد والمحاريب. وللبصاق أيضاً عندهم قوة روحية، والأذن عضو مزدوج الجنس، يجمع بين الذكر والأنثى. والمفاصل هي مركز النطفة الحية، والأقدام عرضة للتدنس بنجاسة الأرض فيجب تطهيرها في أوقات متقاربة. وكل إنسان في أصل تكوينه يجمع بين صفتي الذكر والأنثى. فالرجل فيه من خلقة الأنثى ما دام بغير ختان. والأنثى فيها من خلقة الذكر، ما دامت بغير خفاض ومن هنا نشأت عادة الختان ي الجنسين، فالختان هو الذي يميز كل جنس عن الآخر ويحدد طبيعته نهائياً.

وهم لا يطلقون اسماً على الرضيع إلا عد فحص تركيبه الجسمي، وتعرف فطرته (تيريه). والاسم الأساسي للطفل هو اسم جده الذي حلت روحه في الرضيع؛ ويضاف إليه أسماء وألقاب أخرى. (مثل اسم الأسرة وشعارها وشجرة نسبها) والتوءمان عندهم نتاج مباشر لإله الماء ويعدون ولادتهما يمناً وبركة. وأما الوليد الأشقر اللون فيعدونه نجساً. وكانوا في العصور الأولى يذبحونه قرباناً في الأعياد الكبيرة.

وعندما يموت الشخص تنفصم عنه (نفوسه) فتذهب (ديا) إلى الماء، وتنضم هناك إلى آلهة الماء. وأما (ني) فتحل في محراب الأسرة فإذا ولد طفل في الأسرة عادتا للحلول في بدنه، ومصير الجثة إلى الديدان والفناء.

وتعتقد قبائل (دوجون) أن العنصر غير المتجسد في الإنسان مركب من "خيال عاقل" يسكن الجسم وهو الذي ينفصم عنه في سباته ثم من "خيال غير عاقل" وهو الظل المادي ثم من القوة الحيوية وهي (النياما). فالموت يطلق الظل الأول، فيتجه للاتصال بالإله بعد رحلات طويلة. وأما النياما) فتفارق الجسم عن طريق الشعر.

وتعتقد قبائل (مندانج) أن كل إنسان له صورة أو ظل (دا) Da وله نسمة بها حياته (ني) Ni إلى السماء وأما (دا) فإنها تظل في بيت الميت، إلى أن تتم مراسم الجنازة، ثم تغادر وتظل هائمة على وجهها زهاء خمسين عاماً، تزور فيها مواطنها الأولى، ثم تعود للحاق بالنسمة (ني).

وقبائل (لوبي) تعتقد أيضاً في وجود عنصرين: أحدهما الظل أو الصورة أو التوءم. والثاني النسمة التي بها الحياة. وموضعها الكبد. وعندما يموت الشخص يظل توءمه مع جسده مع تغير قليل. فإذا تمت مراسم الجنازة الثانية انطلق إلى العالم الآخر، حيث يتناسى شيئاً فشيئاً عالم الأحياء.

وأرواح الموتى مرهوبة الجانب كثيراً. تعتقد بعض القبائل (مثل قبائل الجرزي) أن السحرة يتصلون بها ويخاطبونها. وتزعم قبائل (الجورمانتشي) أن من هذه الأرواح ما يصبح مفترساً يأكل الآدميين. و(البامبارا) يقدمون القرابين لجثة الميت عندما تحمل إلى مقرها الأخير، ويتقدم (شيخ العارفين) فيقول مناشداً الجثة: "أتضرع إليك أن تتركنا وشأننا في سلام. إننا نعدك بتقديم كل ما يرضيك من قرابين".

2 – بين قبائل غينيا: تعتقد قبائل (الفون) في داهومي كما يروي (موبوال) Maupoil أن لكل كائن حي (إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً) أربع أنفس: النفس الشفافة، والنفس الكثيفة والنفس غير المرئية، وهي التي إذا انقطعت عن البدن، وصعدت إلى خالقها حدثت الوفاة، والنفس الكافلة، وهي التي تحل في جسد آخر عندما يفارق الميت الدنيا. كما توجد أيضاً روح الشبه وهي التي تحل في ذرية الراحل. والنفس الشفافة لا تستيقظ في المرأة إلا بعد زواجها. ويدعي السحرة قدرتهم على تصيد تلك النفس والقضاء على صاحبها.

وتعتقد قبائل (اشانتي) في ساحل الذهب أيضاً بأربعة عناصر روحية:

1 – الدم الذي ينتقل من الأم (يلاحظ أن النظام الاجتماعي عند هذه القبائل تسيطر فيه الأمومة) وهذه النسمة تحل في إحدى نساء الأسرة من جانب الأم.

2 – ونسمة تنحدر من الأب، وتنضم بعد موته إلى أهل أبيه.

3 – والنسمة الإلهية وهي التي تجئ من عند الله وإليه تعود. ويزعمون أن هناك سبعة أنواع مختلفة من هذه الروح، على حسب أيام الأسبوع. ومن هنا نشأت عادة تسمية المولود باسم اليوم الذي يتفق مع روحه.

4 – والأخيرة نسمة الطباع أو الشخصية الخلقية. ويزعمون أ شخصية الغلام لا تتحقق إلا بعد بلوغه سن المراهقة. وأما قبل تلك المرحلة فالأطفال لا ينتسبون إلى هذا العالم، ولا يمكن أن ينسب إليهم خير أو شر.

وتميز قبائل (يوروبا) ثلاث أنفس من بينها نفس تسمى نفس الطير وتفارق البدن وقت السبات، ويتمكن اقتناصها عن طريق السحر، وتعتقد (الايبو) أو للرجل توءما يحمل طباعه وطالعه، ويقيم كل امرئ محراباً لتوءمه.

وأما قبائل (إيفا) فتعتقد في نفسين اثنتين: هما روح الحياة، وروح الموت، فالأولى تصعد إلى السماء، والأخرى تنزل تحت الأرض وراء نهر عريض، حيث منازل الموتى والزمهرير والكآبة، وقد تحل نفس الميت في أحد ذريته. وقد يحدث أن تتنافس روحان في الحلول بجسم واحد، فيحدث بينهما شجار يؤدي إلى اضطرابات عقلية عند الشخص المتنازع عليه.

3 – بين القبائل الأفريقية الأخرى: تزعم قبائل (سارا)، قرب بحيرة تشاد، أن الروح تنطلق ناحية الغرب بعد الموت، ولكنها في الوقت نفسه تبقى إلى جانب قبر صاحبها، وتسكن الأواني الجنازية التي ترسم عليها وجوه الرجال والنساء. وتؤمن قبائل (أوبانجي) بأن النفس الآدمية تتركب من قوتين: الأولى متحركة طاغية شهوانية والأخرى ساكنة راسخة، تحد من طغيان الأولى، وتحدث التوازن في مزاج الإنسان، وأن النفوس قد تنطبق أثناء النوم إلى شبيهاتها من الأنفس، فترقص وتعبث وتتزاوج معها، إلا أنها قد تقع حينئذ فريسة لأرواح الموتى التي فارقت أبدانها، فتحاول الهرب منها، فإذا استطاعت الهرب والعودة إلى جسمها استيقظ صاحبها من نومه في كرب وضيق. أما إذا وقعت أسيرة في قبضة الأرواح الأخرى، فإن صاحبها يقضي نحبه، فإن أصابها جرح في نضالها للتخلص من تلك الأرواح أصيب صاحبها بالمرض.

وتجد أمثال هذه المعتقدات بين قبائل كثيرة في الكنغو البلجيكية. فالنفس الساكنة تشبه بالظل؛ والنفس المحركة تشبه بنور العين. وبعضهم يميز نفساً ثالثة مقرها الأذن.

وتعتقد قبائل (الكيكويو) في كينيا أن لكل شخص نفسين إحداهما تنفصل عن الجسد عند الموت لتنضم إلى أنفس أسلافها؛ والأخرى نفس جماعية، وهي جزء من روح الأسرة التي تحل في جسد أحد أعضائها بصفة موقوتة، إلى أن تحل فيما بعد في جسم أحدث مولود في الجماعة.

وأشد ما يخشاه سكان أعالي نهر الزمبيزي ثلاثة أنواع من الأرواح المعتدية:

(أولاً): روح ميت ناله أذى من شخص آخر.

(ثانياً): روح ميت من السلف إذا أهملت الشعائر الدينية الواجبة له أو إذا أهدرت محرماته.

(ثالثاً): روح ميت امتصه الساحر من ثقب في قبره؛ إذ يقلب الساحر أوضاع معدته وأعضائه. ومنذئذ يستخدم الساحر روح هذا الميت في أغراضه.

أما عند قبائل (السوازي) في جنوب أفريقيا فالإنسان يتركب من جسد ونفس متردد. ولابد من تكريم كليهما بعد الموت، ولاسيما إذا كان صاحبهما من الرؤساء، ولذلك تحنط أجسامهم وتوضع جثة الملكة الأم في كفن من جلد ثور أسود. والموت عرض من أعراض الضعف في أسرة الميت، يضطرهم إلى مراعاة حداد طويل الأجل، ويفرض على الأرملة عزلة مدتها ثلاث سنوات. وأما الأرمل فيفرض عليه الحداد عاماً واحداً عند وفاة زوجته الرئيسية، وشهراً عند وفاة الأخريات.

(ب) الجماعة ومكانة السلف منها الأسلاف أموات إلا أنهم أحياء:

من بين العناصر المختلفة التي تتحلل عند الموت يوجد عنصر واحد على الأقل (ولنسمع الروح أو التوءم) يحتفظ بكيانه وشخصيته ليحيا حياة جديدة.

تزعم قبائل (الدوجون) أن الروح تقيم بمسكن المتوفي حتى حفلة الذكرى الثانية للوفاة. فإذا تمت مراسمها تنتقل خارج القرية حيث تسرح وتمرح وتزور مرابع آبائها وأمهاتها، ثم تعود إلى حظيرة الأسرة فتمنح قواها الحيوية (النياما) إلى مولود جديد فيها. فتضمن للقبيلة بذلك الاستمرار والبقاء. وأخيراً تتجه صوب الشمال إلى الجنة (مانجا) Manga حيث تتمتع بالخلود تحت أفياء الأشجار في النسيم العليل.

وعند (البامبارا) تتقمص الروح أيضاً طفلاً يسمى باسم سلفه، ويحمل كنيته وشعاره. ويعتقد (السارا)، كذلك أن روح جد الأسرة تحل في أحد أحفاده. ولكن ذلك ينشئ موقفاً معقداً إذ لا يليق حينئذ أن يعيش الطفل مع أبيه تحت سقف واحد؛ فإن سلطانه يتعارض مع سلطة والده، وهو رب الأسرة. لذلك يجب أن يربي الطفل بعيداً عن بيت الأسرة. ونستطيع أن نقول بوجه عام أن أرواح الموتى تتمتع في نظرهم بموهبة الحلول في كل مكان: فهي توجد في العالم غير المنظور، وفي الوقت نفسه توجد عند القبور، وحول المحاريب، وتتقمص الأحياء، وتراقب سلوك الناس، ويمكنها أن تدعو إليها الأحياء، فإذا فعلت كان ذلك سبباً في موتهم.

وعند قبائل (الأشانتي) تذهب روح الميت إلى مستقر الأرواح وهو يشبه إلى حد ما عالم الأرض، وعند قبائل (مندى) في سيراليون لابد لروح الميت قبل الوصول إلى مستقرها أن تعرف بحراً أو تتسلق جبلاً. وعالم الموتى منظم على غرار عالم الأحياء: فالذكورة، والأنوثة، وعلاقات المودة، وأماكن الإقامة، كلها عوامل تحدد نوع الفريق الذي سيلحق به الميت بعد وفاته.

وأما قبائل (إيفا) فتعتقد أن الموتى يعيشون في باطن الأرض أو في قرص الشمس. وقد تظهر أشباحهم للأحياء. والذي يموت منهم قبل أوانه (بفعل الساحر) يمكن أن يتقمص جسم إنسان أو حيوان.

وتعتقد قبائل (الأوبانجي) أن أرواح الموتى يمكن أن تظل في المكان الذي توفى فيه الشخص. فإذا مات غرقاً ظلت روحه إلى جانب النهر، غلا أن غالبية الأرواح تسبح تائهة في أنحاء الأجمات والغابات، حيث تسكن في الأحجار أو في أعالي الأشجار. ويعتقد (الباندا) أم جلود الموتى مبيضة اللون وهذا يفسر اعتقاد بعض القبائل أن الرجل الأبيض من أسلافهم.

وتتصور قبائل (المانجا) موتاهم في هيئة مفزعة، فيتخيلون أن لهم أجساداً مغطاة بشعر طويل أبيض اللون، وأن لهم رؤوساً لا تزيد على قبضة اليد، وليس لهم أسنان، وأن عيونهم تتوسط صدورهم أجباههم، وفي أصواتهم نحيف، وللبعض منهم ساق واحدة، والبعض الآخر يسير بغير رأس ويعرفهم الناس من سيماهم في ظلام الليل. فإذا رآهم أحد رؤية العين حل به الموت.

وتعتقد قبائل (أوفمبو ندو) في أنجولا البرتغالية أن أشباح الموتى قد تجتاح في الليل أزقة القرى في جلبة وصياح، لتسرق الماشية والطيور – وعندئذ تختار لنفسها بيتاً، فيكون ذلك نذيراً بالمرض لساكنيه. ولا تنصرف هذه الأشباح إلا بتقديم القرابين ترضية لها ومع ذلك فإنها على طول الأمد تعود مسالمة. وعند قبائل (الدنكا) من قبائل أعالي النيل أن الموتى يفقدون قواهم كلما تقادم عليهم الزمن، إلا أنهم يعوضون عن ذلك برفع مراتبهم في عالم الأموات بفضل أقدميتهم. وعند قبائل (التنوير) أن من يموت في الأدغال أو تقتله الصواعق لهم قدرة ممتازة، إذ تصعد أرواحهم للسماء وقد تتسلط أرواحهم على الأحياء.

أما في (روديسيا) فلأرواح الموتى حق الخيار في أن تحل في ذكر أو أنثى، وبذلك يشبعون بعد الموت رغبتهم الجنسية المكبوتة أبان حياتهم، الجنائز والقرابين.

يرتبط الأحياء بموتاهم في الأسرة والقبيلة برباط وثيق من الالتزامات فواجب الأحياء قبل كل شيء أن يقيموا الجنائز لييسروا أمام موتاهم رحلتهم الشاقة بين هذه الدنيا وبين الدار الآخرة. ثم يجب عليهم بعد ذلك أن يقدموا القرابين والضحايا حتى يفوز الأحياء بحماية أمواتهم ورضاهم، وحتى يتحاشوا غضبهم ولعناتهم، وأيضاً لكي يصونوا (القوى الحيوية) لأولئك الموتى أنفسهم.

والمراسم الجنازية عند قبائل (الدوجون) طويلة معقدة. تبدأ بأن يقوم (القناع الكبير) – وهو رئيس السحرة والكاهن الأكبر والطبيب الأكبر في القبيلة – بزيارة المتوفى. ثم تتجمع نسوة القبيلة حول مسكن الفقيد يولولن ويندبن، ويقوم عدد من الرجال المسلحين باحتلال سطح المنزل. وتلي ذلك تراتيل بلغة سرية، ويشترك الجميع في الرقص وفي حركات تشبه المبارزة أو مطاردة الصيد، ثم يحمل جثمان الميت ويدور به المشيعون يمنة ويسرة وأخيراً ترفع الجثة لتوارى في مغارة منقورة في الصخر.

وبعد أيام تبدأ الجنازة الثانية التي تقام لكثير من الموتى، تحقيقاً لرحيلهم الأبدي عن هذه الدنيا. وتستمر مراسم هذه الجنازة عدة أيام بعد الاستعداد لها بصنع أقنعة وثياب من ألياف النبات، وعقد حلقات الرقص المقدس والترتيلات الدينية، ويتخلل هذا جلسات يحتسي الجميع فيها الخمور. وينصب عادة محراب لكل ميت في مسكن الأسرة الأصلي. ويتركب المحراب من أوعية من الطين اليابس، وأصداف مجوفة، وعيدان يابسة، وسلاليم صغيرة. ويتولى أكبر الأسرة سناً خدمة المحراب، وتقديم القرابين، وتعيين من يذبح الأضاحي ومن يحضر الحفلات. ثم يسمى المولود الجديد باسم الجد الذي حلت روحه في ذلك الطفل. ويكون تقديم الأضاحي سنوياً من بشائر المحصول الجديد، ومن ضحايا معينة في بعض المناسبات: قبل الخروج للصيد، وعند المرض، أو عند حدوث شجار. فهذه كلها أسباب لانتقاص القوى الحيوية. فإذا كرم الأحياء موتاهم أسبغ هؤلاء عليهم قواهم مقابل التكريم.

وفي قبائل (البامبارا) توجد جمعية (كومو) Komo وهي جمعية دينية لها سلطات روحية واسعة. منها أنها هي التي تباشر المراسم الجنازية فيحرس الميت زملاؤه في الرتبة والسن، ويحملونه إلى مقر الأخير، ثم يناشده رئيس الجمعية بقوله: "أتوسل إليك ألا تؤذينا، فدعنا نعيش في سلام ووئام، وليكن زرعنا نامياً ومحصولنا وفيراً. وليكن زرعنا نامياً ومحصولنا وفيراً. وامنحنا بركاتك، فقد أدينا لك جميع حقوقك ونحرنا لك القرابين" ومن ثم تنحر الذبيحة ويلقي دمها داخل القبر، ثم تحرق بعض ممتلكات الميت (السرير والحصير والمشط والشعر) ويوضع رمادها داخل القبر لتلحق به في الدار الآخرة. وبعد ذلك ينصب محراب الميت في أسرته. ويدعم المسكن بعمود يمثل عميد الأسرة ومؤسسها. ومن عادتهم أنهم قبل بذر الحب لزراعة الأرض ينادون أسماء موتاهم، وكل ميت يمثله وعاء كروي به شتى الحبوب التي تطبخ وتصب عند مدخل المسكن، حيث تنحر الذبائح. ويقيمون كل عام حفلاً حول قبور الأجداد يشترك فيه لابسو الأقنعة بالرقص حول القبور.

وفي (ساحل غينيا) يدفن مع الميت طعام وتبغ وافاوية وحلى من الفضة، ويتقربون لآلهة الأرض بصب الخمور على الأرض بصب الخمور على الأرض قبل شق القبر. وأما قبائل (اشانتي) فتدفن موتاها في مكان يسمونه "غابة الأشباح" ثم ينحرون شاة ويقدمون خمراً من البلح قرباناً للميت. فإذا فرغوا من ذلك وضعوا نباتاً متسلقاً في عرض الطريق حتى يحول دون لحاق الموتى بهم. وتقام الجنازة الثانية بعد عام، فتنحر الذبائح، وتقام الولائم الراقصة. وعلى الرغم من كل تلك الحواجز فإنها لا تحجز عنهم الموتى حجزاً تاماً. فالموتى قريبون منهم دائماً، حتى أنهم قبل كل طعام يضعون لموتاهم قليلاً من الحبوب وقطرات من الشراب على ناحية، نصيباً للموتى. ولا تنظف أطباق الطعام من فضلات الطعام بعد العشاء، بل تترك لكي تستطيع أرواح الموتى أن تنتفع بما تبقى بها. هذا إلى أنهم يستخيرون موتاهم ويطلبون حمايتهم. فإذا أهمل الأحياء واجباتهم نحو موتاهم انتشر المرض بينهم ونزلت بهم الكوارث انتقاماً منهم وكل فرد من أفراد قبائل (الأشانتي) يملك كرسياً من الخشب أبيض اللون، يعتقد أن روحه مشدودة إليه. فإذا مات طلي هذا الكرسي بلون أسود مأخوذ من مح البيض معجوناً بسناج الدخان. ثم ينقل الكرسي إلى بيت تحفظ فيه كراسي الموتى من الأسرة وتؤدي له بعض الشعائر. ولقبائل (إيفا) كذلك مثل تلك الكراسي خاصة بآبائهم، غير أن قربانهم من الطعام والشراب يوضع فوق القبور.

أما في شمال ساحل الذهب فللرجال وحدهم حق الاتصال بأرواح الموتى. وأما النساء فلهن أن يشهدن حفلات التضحية، وليس لهن أن يقدمن الأضاحي بأنفسهن. وإذا عقمت امرأة تمسحت بمحراب الأجداد كي تنجب. وأما قبائل (منده) في سيراليون فإنها في العادة يعيش في وئام مع أرواح الموتى وتتخذ منهم حماتها وهداتها. ولكن بعض الموتى المعروفين بالشر في حياتهم والذين تقبل أرواحهم في مستقر الأموات تجئ أرواحهم إلى المساكن، وتدأب على تهديد السكان وإشاعة الفزع في نفوسهم. وكذلك تصنع أرواح الموتى الذين يهمل أهلوهم أن يدفنوا معهم فضة وثماراً تكرمة لهم عند قدومهم للآخرة ليستعينوا بها على إقامة بيت لهم فيها.

وفي غرب الكامرون يبقى الميت في مسكنه. والغالب أن يدفن، حتى إذا تحلل جسده نزعت منه الجمجمة التي يزعمون أنها مأوى الروح، فتوضع هذه الجمجمة في مسكن الأسرة، أو تدفن على عمق يسير من سطح الأرض. وتحتفظ الأسرة بهذه الجماجم لاستخارتها في أزمات المرض والمشاكل، ويقدمون لها الشراب والطعام. وبعضهم يقيمون بيوتاً في الغابات لتأوي إليها الأرواح التائهة الشهيدة. وقد تغالت بعض القبائل في عبادة الجماجم إلى درجة التنقيب عنها والحرص على اقتنائها ولو باصطياد الآدميين وأكلهم لأخذ جماجمهم.

وفي شمال الكامرون ومنطقة تشاد يطوي جسد الميت في وعاءين أحدهما غطاء للآخر. ويحتفظ أهل الميت بوعاء ثالث في بيت الأسرة يرمز للميت، فيقول أحدهم مثلاً مشيراً إليها "هذا أبي". أو هذا جدي" ويملأ الوعاء بخمر الذرة، ويدار على أعضاء الأسرة ليشربوا نخب الميت. وتقام بين وقت وآخر ولائم دينية تشترك فيها الموتى مع الأحياء في وحدة روحية. وقد تجعل هذه الولائم شعبية وتوزع فيها الأضاحي والصدقات.

وبين قبائل أفريقية عامة يظهر الموتى في الحلم لذريتهم ناصحين أو مقرعين أو مطالبين بما أهمله أبناؤهم من القرابين الواجبة لهم، هذا إلى أن بعض المتخصصين يستطيعون الاتصال بالموتى عن طريق الكهانة. وتعتقد قبائل منطقة البحيرات الاستوائية أن الصيادين في طرادهم للصيد يمكنهم الاتصال بالموتى من خلال الفجوات التي يصادفونها في الأحراش.

كل هذه الأمور تجعلنا يدرك مقدار حيرة الزنجي الوثني، ومبلغ توزع نفسه بين عاملين شديدين: عامل الرغبة في الفوز بالقوى الحيوية التي كانت لآبائه والحاجة لحمايتهم، وعامل الفزع من سخطهم وخطر تأنيبهم له. إلا أن بعض قبائل (البانتو) اهتدت إلى حل حاسم لهذه المشكلة، ووفروا على أنفسهم عناء تلك الحيرة، فأجمع رأيهم على أن يأكلوا لحم الميت ليلة مأتمه، ثم يثنوا بحرق عظامه. وبهذه الطريقة الفريدة أصابوا عصفورين بحجر، إذا انتفعوا بقواه الحيوية بإدماج لحمه في أبدانهم، وفي الوقت نفسه محوه من الوجوه بإحالته رماداً فضمنوا استحالة عودته إليهم لينغص عليهم حياتهم.

النظام الاجتماعي في القبيلة:

تتكون الهيئة الاجتماعية في القبيلة من الموتى ومن الحياء جميعاً، على أساس تبادل المنفعة والخدمات بينهما. فالموتى همن الرؤساء الفعليون في الأسرة والقبيلة، وهم القوامون على استمرار مراعاة التقاليد، والمراقبون لسلوك ذرياتهم من الأحياء. ولهم عليهم حق الثواب والعقاب إن هم تمسكوا بالعادات المرعية أو حادوا عنها. فالمحافظة على العادات، واحترام الموتى من الآباء والأجداد، وإقامة المآتم والحفلات الدينية لتقديسهم،

كل هذا يجري بإشرافهم وتحت رقابتهم. وبفضل هذه الرقابة يظل النظام الاجتماعي والأخلاق والآداب مكفولة. وتشمل قواعد التحريم بعض الأعمال، والنظام العام، والأوضاع المختلفة باختلاف الأشخاص والمناسبات، وخاصة الأغذية. فمثلاً في غرب الكامرون يحرم على الرجال أكل لحم الخنزير والسلحفاة والفهد؛ ويحرم على النساء أكل لحوم الخراف والتيس والقردة والسمك والأفاعي. وإذا انتهك فرد محرماً ما نزلت به الكوارث، كالمرضى، أو سوء غلة الأرض، أو عقم نسائه، أو ماشيته، غضباً وسخطاً عليه من أجداده، الذين لا يستطاع استجلاب رضاهم إلا بتقديم القرابين ونحر الأضاحي، أو بكفارات شخصية، مثل الصوم عن الطعام والشراب، أو الاستسلام لعقوبة صارمة ينزلها بهم رب الأسرة. فإذا كان الذنب عظيماً حكم على الفرد بالطرد والتشريد من القبيلة. وهذه هي أشد وأقسى العقوبات في عرفهم.

وبتلك الوسيلة وأشباهها أصبح للأجداد النفوذ الكامل في تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أفراد القبيلة. ولكل ذنب عقوبة مقررة يعرفها الجميع ويخضعون لها، فإتباع هذه النظم ضريبة عامة، وهكذا يصبح التماسك الاجتماعي، ومراعاة النظام، والاشتراك في الحياة العامة وحفلاتها الدينية، والمساواة المادية إلى حد ما، وتبادل الاحترام، كلها فروضاً مكفولة وميسورة بسلطان القوى العليا، التي تسهر دائما على التمسك بالتقاليد، والتي تعبر بتشريعها الحكم عن اندماج الإنسان في سنة النظام العالمي، وأقسى ما يصيب الفرد أن يطرد من الهيئة الاجتماعية للقبيلة، لأن قوته الحيوية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقوى الحيوية من ناحية وبقوة باقي الجماعة من ناحية أخرى، ولا تتصور نكبة أشد من أن يعيش المرء بمفرده مقطوعاً عن قبيلته دون حماية أو سند.

هذه الهيئة الاجتماعية القوية المتماسكة تقوم على أساس دقيق من النظام التدريجي، الذي يشمل الموتى والأحياء، فلكل مرتبته الخاصة وأعلى مراتب هذا النظام يختص به الأسلاف العظام الذين أسسوا تلك القبيلة، ثم يليهم في المرتبة من الموتى الجد الأعلى للأسرة، ثم ذريته حسب أسبقيتهم في الوفاة، ويأتي بعد هؤلاء الموتى جماعة الأحياء على الترتيب التالي:

(**1**) أكبر الأسرة سناً وهو رب الأسرة ورئيسها، وهو الواسطة بين الأموات والأحياء، ويتمتع بالقوى الحيوية الإنسانية منها والطبيعة ويقوم بجميع الشعائر الواجبة نحو الآباء، ونحو ظواهر الطبيعة، إذ في قدرته أن يأمر السماء فينهمر المطر، وأن يبعث الحياة في الزرع فينمو ويمنح الخصب للمرأة العقيم. وهو المهيمن على الصحة والنظام.

(**2**) ويليه في المرتبة الشيوخ، فمثلاً إذا التقى شاب من قبائل (داهومي) بجده في الطريق ركع على الأرض وسجد له.

(**3**) وبعد هؤلاء الشيوخ تجئ طبقة الكهول من الرجال.

(**4**) ثم يليهم الأطفال وحتى هؤلاء مقسمون إلى طبقات تبعاً لأسنانهم. وأما النساء فلهن مكانة اجتماعية على حدة. وفي الغالب هي ذات اعتبار، وخاصة في القبائل التي تنتسب لأمهاتها. ومن كل هذا نرى أن السن العالية ثم الجنس هما اللذان يحددان الأوضاع الاجتماعية. وقد تحددها أيضاً الطبقة الاجتماعية وهذا الترتيب يتشدد الجميع في مراعاته، لدرجة أن مجرد حركة مخالفة له تبدو من أي شخص (كأن يجلس صغير مكان أخيه الكبير أو يغضب شاب شيخاً أو يعارض غلام والده) يعتبر في عرفهم إخلالاً بحرمة الآباء والأسلاف، وانتهاكاً لحرمة التقاليد القبلية. ويقتضي غفرانها تقديم قربان أو ذبح ضحية أو كفارة.

هكذا تعتبر كل أسرة نفسها في كفالة أجدادها من الموتى، ورئيسها من الأحياء. غير أن هناك نفراً أعلى مرتبة من جميع المراتب السابقة، وهم الرؤساء الأعلون، الذين يجمعون في أيديهم السلطان الدنيوي والروحي على القبيلة كلها. فهم أكبر الوسطاء بين الموتى والطبيعة، ويعرف الرئيس الأعلى باسم (هوجون Hogon) بين قبائل (الدوجون). وهو كاهن الجد الأكبر المؤسس للقبيلة ويشترط فيه أن يكون، إما رئيس أعرق أسرة في القبيلة، وإما أن يختاره أضرابه وقرناؤه، وإما أن يتحدد بعلامة خاصة (كأن يستقر على رأسه طير أحمر). هؤلاء الرؤساء الأعلون لا يتصلون بالناس، لأنهم أنصاف ألهه، فيتخذ الواحد منهم مسكناً نائياً عن القرية، يدير منه الشئون الروحية والاجتماعية للقبيلة. وهو السيد المطاع دون منازع، لأنهم يزعمون أن في يديه الصرف في نظام الكون نفسه.

وحيث يوجد الملوك في القبائل الكبرى نجد أن الملك يتمتع بنفس تلك القوى الخارقة للعادة، فهو الذي بيده خصوبة الأرض، وهو حلقة الاتصال بالقوى الخفية. ولهذا كان من المهم جداً حسن اختيار الرئيس الحقيقي الكفء. إذ لابد من توافر شروط دقيقة فيه، كشرف الأصل وإجماع آراء الموتى من الأجداد. فإذا لم يراع ذلك في انتخابه حلت الكوارث، فينقطع المطر وتجدب الأرض فلا تؤتي غلتها، ويؤول أمر الجماعة إلى الدمار والخراب.

وتتبع في انتخاب الملك طقوس خاصة ففي قبائل (اشانتي) يحمل الملك على الأعناق ويجلس على الكرسي الأسود لسلفه كي تحل روح السلف فيه، ويعاد تقليد الجلوس هذا ثلاث مرات متواليات. وأن اسمه نفسه له أثر فعال.. وفي جنوب الكونغو لا يجوز لأحد أن يراه ساعة تناول الطعام، فهو يعيش في مسكن منعزل محوط بحرمات عديدة وفي عرفهم أن ملامسته أو التحديق فيه تلويث لقدسيته، وإضعاف لقواه الخارقة التي يملكها في السيطرة على نظام الطبيعة، فإذا توفى أخفى موته مدة طويلة وتهامس الناس به بالكناية والتلميح دون التصريح، فيقال مثلاً "قد انقضى الليل أو قد تهدم البيت".

وكان المتبع قديماً بين قبائل (هوزا) عند موت الملك أن يحنط جثمانه. وبين قبائل (اشانتي) و(الفون) أن يذبح عدد من الناس ليقوموا بخدمته في الدار الأخرى وكانت عبادة الملوك تأخذ أهمية عظيمة وتفرض تضحيات بشرية فالسلف من الملوك ومن مؤسسي الشعوب يأخذون في أعين الناس صفة الآلهة العظام الحماة لشعوبهم.

وتعتقد قبائل (الزولو) أن الأب الأول هو الذي خلق الناس. وهكذا لا يبقى عندهم لإله السماء إلا رتبة ثانوية. وتدول حول هؤلاء الأبطال المؤسسين قصص وخرافات غاية في سعة الخيال. فمن ذلك ما تعتقده قبائل (موكولهي) أن خالقهم (موكولهي) Mukuléhé يتمتع بقوى حيوية خارقة للعادة كما يتمتع بالجمال الفتان والرجولة الفتية وهو الذي جلب حبة الذرة في أرضهم، ولذلك خصصوا كاهناً يتولى المحافظة على ما تركه من مخالفات.

ولقبائل (الدوجون) أساطير وأقاصيص نهاية في سعة الخيال والتصور، وتحل أعظم مكان في ديانتهم ويمكن تقسيمها إلى ثلاث طبقات:

(1) الجد الأول للقبيلة، وهو الذي مات في هيئة أفعى، ويرمزون له (بالقناع الكبير) وهذا القناع يبدل مرة كل ستين عاماً في احتفال ديني حاشد، ويعرف باسم (سيجي) Sigui تشترك فيه وتتجاوب له عامة عشائر الدوجون.

(2) يلي ذلك طبقة (بينو) Binou وهم الأجداد الأقدمون الذين تحولوا جناً والذين يمكنه معرفة اتصالهم بالناس بعلامة خاصة وهي نزول حجارة معينة من السماء. فإذا سيطروا على بعض الأحياء كان هؤلاء هم كهان القبيلة.

(3) ويلي ذلك أخيراً طبقة (ليبه) Lébé وهو أقدم جد مات على صورة إنسان ولكنه يحيا في باطن الأرض على صورة ثعبان، فيمنحها الحياة والخصب، ويزيد نبات الذرة قوة إلى قوته، ولذلك تقدم القرابين إليه في وقت بذر الأرض وعبادته تعد من جهة عبادة للأجداد، ومن جهة أخرى عبادة للأرض التي أحيتهم. فالزنوج لا يفرقون بين الطبيعة وبين ما وراء الطبيعة، إذ الكون عندهم وحدة لا تتجزأ.

(جـ) عبادة الطبيعة

الحيوان – النبات والمعادن والأشياء

الحيوان

يعتبر جزءاً غير منفصل عن حياة الناس، وتختلط نشأته بالأقاصيص والخرافات التي تدور حول نشأة الإنسان. يقول (الدوجون) أن الحيوان توءم الآدمي؛ ويقابل كل جد من أجدادهم الثمانية حيوان سماوي يشترط مع هذا الجد في الروح. وبذلك يستطيع أن يظهر في شكل توءمه من الحيوان. وكلما ولد مولود ولد معه صنو له من الحيوان الذي كان يعيش مع الأجداد وصنو آخر من الحيوان المقابل له وقد رأينا فيما تقدم عقيدتهم في أن أجدادهم تحولوا إلى أفاعي. أما الكبش فهو في نظرهم مسيخ تحولت إليه وتجسدت فيه جنية الماء.

وهم يمثلونه حاملاً بين قرنية يقطينة تمثل قرص الشمس.

وللحيوان في عرف (البامبارا) نفسان: (بي) و (ديا) مثله في ذلك مثل الإنسان العاقل. فإذا قتل صيداً ما تعقبته روح تلك الفريسة في أنحاء الغابة لتنتقم منه. ولذلك يجب على الصياد أن يؤدي مراسم خاصة ليقتنص فريسته. ولكل أسرة قريب أو نسب ما من الحيوان يحرم عليها أكل لحمة. والحدادون لهم قدرة على التحول إلى ما يشاؤني من أنواع الحيوان.

وتزعم قبائل (الماندانج) أنها تحت حماية بعض الحيوان، كالأفعى العاصرة، والتمساح، والحرباء، والسلحفاة، والثعبان. والحيوان الخطر يحرم عليهم النطق باسمه، ولذلك يسمون التمساح ضباً وتتركز نياما الحيوان المقتول في جزء من جثته (كالأذن أو الذنب أو الشارب أو المخالب) فإذا قتل الحيوان أصبح ذلك الجزء قوة تستغل في أغراض السحر.

ولدي القبائل الساكنة على ساحل غينيا (الأشانتي – والفون – الايفا – اليوروبا) نجد الصلة بين الإنسان والحيوان وثيقة؛ إذ يزعمون أن لكل إنسان شبيهاً وصنوا من الحيوان، فإذا قتل حيوان قتل صنوه. ويعتقد قبائل (اشانتي) أن لبعض الحيوان كالفيل والوعل روحاً شريرة، فإذا قتلها الصياد وجب عليه أداء مراسم الجنازة تسكيناً لغضها.. وفي مناطق معينة يحرم قتل نوع خاص من الحيوان، كالأفعى العاصرة، والتمساح.. وبعض أنواع الحيوان موضع تقديس، فالحمل مقدس من أجل آلهة الصواعق. والأفعى لها جملة معابد في جنوب داهومي ولذلك يتركونها آمنة بين المساكين دون أن يمسها أحد بسوء، فإذا رآها إنسان منهم قبل الأرض بين يديها وناداها بكلمة (أبي) وكثير من العشائر تزعم أنها تمت بصلة القرابة إلى حيوان ما

، فإذا نفق وجب دفنه وأقيمت له الجنائز والمآتم وبكته الطائفة، كما يفعلون لموتاهم من بني الإنسان. هكذا تصنع قبائل (الأشانتي) و (الفون) في الأفعى، وكذلك تفعل قبائل (الأديوكرو) في الضب وبعض قبائل (الفون) في الفهد. وتسمى بعض العشائر نفسها باسم حيوان فبعض عشائر (يوروبا) تسمى نفسها بالكبش أو الفيل أو القرد الأحمر، حيث تربط الأساطير بين أجداد العشيرة وبين الحيوان المعين. وهكذا تزعم الأسرة الملكية في (داهومي) أنها تنحدر من أميرة ملكية واقعها فهد، ولذلك نرى رسم الفهد على الدرع الملكية ويغطي أفراد القبيلة أجسامهم بوشم يمثل براثن الفهد الخمسة..

ويزعم بعض الرجال في غرب الكامرون أن لهم القدرة على أن يتشكلوا بأشكال بعض الحيوان وأن يتحالفوا معها: فمن الممكن أن يرسلوا فهداً من ذوي قرباهم ليفترس عدواً لهم. ومن الممكن أن يتحول الإنسان إلى فهد أو سلحفاة أو ثعبان، وأن يكون الإنسان في الوقت نفسه في منزله وفي طي حيوان يقاتل أعداءه (فالإنسان الحدأة يفترس دجاج عدوه). ويعتقدون أن بعض العناكب نبئ بآثارها على الأرض عن المستقبل ويعتبرون السلحفاة حيواناً عاقلاً، يحمي صاحبه، ولذا يعني به في الحضر، ويصطحب في السفر. أما الضب والحرباء فهي نذر الموت فيجب قتلهن.

وقد تركت الحضارة القديمة حول بحيرة تشاد أثاراً، وهي تماثيل لها جسد إنسان ورأس كبش تدل على أسلوب تصوراتها. وبالرغم من أن حلفاءهم قبائل (كوتوكو) قد اعتنقوا الإسلام فغنهم مازالوا يحتفظون بحيوان في كل مدينة، يعتبرونه حاميا لها. وهو في الغالب على هيئة ثعبان يربض في أسوار المدينة، وتقام له بعض الشعائر، ويستخيرونه في مهام أمورهم كانتخاب رئيس للقبيلة مثلاً.

وتصور (المانجا) صلتها بالحيوان في تماثيل مختلفة، فتارة نرى أن إحدى نساء العشيرة في الماضي السحيق أنجبت حيواناً، وتارة نرى أن صيادهم القدماء استطاعوا مؤاخاة أصل هذا الحيوان.

فإذا قتل الصياد حيواناً من ذوي القربى كان عليه أن يعترف بذلك لرب الأسرة، فيقوم هذا بتقديم القرابين تسكيناً لروحه وكان عليه أن يستسمح الحيوان المقتول وأن يبكيه. وأعجب من ذلك أنهم يزعمون أنه لو وقع أحدهم بين مخالب وحش من ذوي قرباه فما عليه إلا أن يذكره بصلة النسب بينهما، فيخلي الوحش سبيله من فوره. ولابد من تأدية مراسم خاصة (شعائر وقربانات من الشراب) للخلاص من انتقام الوحوش التي قتلت أو أكلت وخاصة الثيران، لأنها حيوان فيه غريزة الأخذ بالثأر.

وتزعم قبائل (الشلوك) أن بقرة كانت هي أصل سلالة الإنسان الحيوان جميعاً، وأنها أول ما خرجت من النهر كانت تحمل على رأسها ثمرة اليقطين، وكان في داخلها نطفة الإنسان والحيوان معاً. ولكل فرد منهم ثور مقدس يحمل اسمه. فإذا مات صاحبه ذبح الثور ووضع قرناه على قبر صاحبه، بينما يمتنع بعض العشائر من أكل لحم الحيوان الذي يدعى القرابة له. وكذلك الحال عند قبائل (الدنكا).

وأما قبائل الأقزام في مستعمرة (جابون) فيدعون الانتساب غلى الفيل المسمى (جور) Gor والذي يعتبرونه ملكاً للحيوان، ويزعمون أن الرعد يمثل صوته، وأن يعاونهم على معرفة مواضع الصيد في الغابة، بإيحاء ذلك إليهم في النوم. وفي روديسيا يزعمون أن رئيس القبيلة بعد وفاته يعود إليها في صورة أسد.

ورغم أن معظم قبائل (باسوتو) في جنوب أفريقيا أصبحت مسيحية فما والوا يطلقون على أنفسهم أسماء الحيوان (تمساح – وعل – أسد – قرد) وهكذا يحتفظون بذكريات ديانتهم الوثنية التي تربطهم بهذه الأنواع من الحيوان

النبات والمعادن والأشياء:

تزعم البامبارا أن النبات يسري به أحد جوهري الروح (ني) فلابد من إقامة شعائر دينية للاحتفاظ بهذا السر فيه، وأن الطماطم وحدها هي التي يكمن فيها الجوهر الثاني (ديا) ويعتقدون أنها هبة الله لعباده، وأنها متناسلة من الدم، وأنها سبب الحياة بحيث إذا طعمت منها امرأة اخبت من نطفة الرجل وأنجبت. وبعض النبات كثمرة (بالانزا) Balanza وخاصة حبة (الفونيو) Fonio تلعب دوراً هاماً في أساطير الخليقة لدى البامبارا والدوجون.

وعل ساحل غينيا شجرة (الأيروكو) Iroko هي رمز الخصب والتكاثر. ويعتقدون كل الأشجار لها أرواح. فإذا قطعت وجب تقديم القرابين لاسترضائها. ونجد نفس المعتقدات عند قبائل (أوبانجي). وفي بعض القبائل (المانجا والباندا)، أن لكل نوع من الشجر جنية تختصها بمزيد حبها فإذا قطع غصن منها وضع إلى جانب محراب جاءت الجنية للإقامة فيه. وأكثر مواد السحر مأخوذة من خشب الأشجار وإفرازها ومسحوق النبات، لأن القوة الكامنة فيها عظيمة.

ومن عجيب عادات قبائل (كيكويو) في كينيا أنهم إذا قطعوا الأشجار لتمهيد الأرض للزراعة تركوا شجرة سليمة بين مسافة وأخرى حتى تلجأ إليها الجان التي كانت ساكنة في الشجرة المقطوع بعد أن يقدموا لها الأضاحي وبعد أن يتضرعوا لها أن تترك مسكنها وتنتقل إلى الشجر الذي لم يقطع. فإذا اضطروا لقطع الأشجار الباقية جاؤا بفرع وركزوه إلى جزع الشجرة لتلجأ إلى جنياتها. ثم يحملونه إلى شجرة أخرى لتنتقل من الفرع إلى الشجرة الجديدة حتى تستقر وتعيش فيها نهائياً.

ومن المؤكد أن بعض الجماعات تزعم أن لها صلة قربى أو صداقة بنوع من النبات. فعشائر النوير النيلية تقدس ثمرة اليقطين لزعمهم أن جدهم جاء إلى هذه الدنيا داخل هذه الثمرة.

ومن المعادن المقدسة عند قبائل (الدوجون) معدن النحاس والذهب إذ يعتبرونها ملكاً لله، وفي عرفهم أن الذهب هو الأخ الأصغر للنحاس. وتعتقد بعض قبائل غينيا أن الذهب كائن حي تكمن فيه قوة رهيبة، واستخراجه من باطن الأرض يوجد القيام بشعائر دينية. وفي بلاد (توجو) يسود الاعتقاد بأن الحياة تجري فيه ويسمونه (الذهب الحي) ويزعمون أن هناك حيواناً وحشياً أشبه بالقط يعيش في باطن الأرض يتغذى بالدمار ويفرز مادة الذهب.

وتقدس قبائل (كوتوكو) بعض أنواع الصخور التي لها أشكال خاصة كرية أو مستديرة ومن مراسم التتويج لديهم أن يجلس الملك على حجر منها إعلاناً باعتلائه على العرش. وتعتقد قبائل (كردي) أن في بعض الصخور حياة لأنها حارة الملمس في الليل، وأن لها قوة الانتقال من مكان إلى آخر حين يجن الظلام. فإذا رآها أحد هكذا وحاول الهرب منها فإنها تتبعه وتقتله أما إذا عرف عادتها فإنه يحتل مكانها في الفجوة التي تركتها. وحينئذ تصطلح معه وتمنحه دواء نافعاً للحياة.

وفي هذه المنطقة نفسها وفي غيرها تقدس النصب (الأحجار المنصوبة) ويوجه إليها الدعاء، إما لما فيها من خاصية ذاتية أو إلى الجان أو الآلهة التي تسكنها. ومن الأشياء المصنوعة (مثل المحاريب من الحجارة أو الأواني) ما يرمز للأسلاف أو الجان على أن لبعضها عندهم حياة مستقلة: فتعتقد (السارا) مثلاً أن سندان الحداد له روح. وأنه ينتقم من كل إنسان يؤذي الحداد وكذلك القوارب لها روح.

عبادة الأرض والعناصر والنجوم:

الأرض في الغالب موضع تقديس بين القبائل الزراعية. ومعلوم أن غالب قبائل الزنوج تعيش على الزراعة. وكل قبيلة تملك قطعة من الأرض لابد لها أن تتحالف معها وليس معنى الأرض هنا الكوكب الأرضي كله وإنما الوطن الصغير الذي تسكن في أنحائه القبيلة. وليس التحالف مع الأرض نفسها ولكن مع الروح الذي يكمن في ذلك الأقليم المعين. فإذا نزحت القبيلة عن أرضها واحتلتها قبيلة أخرى، فعلى هذه أن تستأذن "شيخ الأرض" وهو رئيس القبيلة السابقة حتى يأذن لها في سكناها وزرعها.

وفي شمال ساحل الذهب يعتبرون الأرض هي المعبود الرئيسي، ويزعمون أن الأرض تشمئز من إراقة الدم عليها. فإذا قتل إنسان سارعوا إلى إقامة الشعائر الضرورية تحاشياً لغضبها، واستجلاباً لرضائها، وتجنباً للكوارث التي يستتبعها ذلك الغضب. ولذلك نرى أن من سلطة "شيخ الأرض" أن يفض النزاع بين الناس. وهم يقدمون القرابين والأضاحي تكريماً للأرض بانتظام، في عيدين: هما عيد بذر الحبوب، وعيد الحصاد.

وترى العادة نفسها متبعة بين جيرانهم وهم قبائل (لوبي) فهي تقدم القربان من الخمر والحلوى وحب الذرة أمام محراب "آلهة الأرض" وهو شكل مخروطي من الطين يقام إلى جانب شجرة عظيمة. وفضلاً عن هذه المراسيم الشعبية عند المحراب، فإنه يجئ إليه كل مذنب خرج عن شريعتها بارتكاب المحرمات، كالسرقة أو القتل أو الزنا، معلناً توبته والتكفير عن جريمته. وإلا عزفت الأرض عن ابتلا ع ماء المطر فيبور الزرع.

وتعتقد قبائل (أيبو) في نيجيريا أن الأرض هي ملكة الكائنات الساكنة في باطنها. وجميع الناس مملوكة لها سواء منهم الأحياء والأموات. وهي (بالاشتراك مع أرواح الموتى من الأجداد) مصدر التشريع والقضاء في شأن الأخلاق؛ فالقتل، وسرقة المحصول، والزنا، وولادة توءمين، أو ولادة مولود شاذ الحلقة، تعد إهانة لها. باسم الأرض تشرع القوانين؛ وباسم الأرض يقسم الناس. ولآلهة الأرض توابع من الآلهة الصغرى ومنهم آلهة الماء.

وتعتقد قبائل (أوبانجي) أن الأرض هي الأب الأول للإنسان، ويكاد اسمها يكون عندهم مرادفاً لاسم (سيتو) Seto وهو بطل حضارتهم المعروفة بأنه إنساني النزعة، ذو دعابة، وأنه يملك كل نبات في الأحراش والغابات.

وقد تختلط عبادة الأرض بعبادة الأشجار والأحجار والمياه.ولذلك تقدس قبائل (لوبي) بعض الأجمات والدوح العظيم والكهوف والزواحف التي تأوي إليها، كما يقدسون النهر وماءه ويزعمون أن الجنس الأبيض يسكن مياه الأنهار.

والقبائل التي تسكن المناطق الجافة (مثل الدوجون والبامبارا) وتعطي أهمية خاصة لإله الماء والأنهار، فإذا فاض نهر سارعت قبيلة (مندي) إلى تقديم القرابين له، ضارعين إليه أن يروي أراضيهم حتى يزرعوها. وفي غرب الكامرون حيث تقيم قبائل (بامون) و (باميلكه) يزعمون أن الصخور العالية تمثل آلهة الأرض والماء وبلغ من تقديسهم لها أنهم إذا أرادوا إثبات صحة شهادة إنسان جعلوه يلعق هذا الحجر بعد طليه بالأفاويه والتوابل الحريفة. ونرى في مناطق الجفاف هذه أشخاصاً ذوي مرتبة دينية في القبيلة لابد من وساطتهم لاستدرار المطر. ويطلق على الواحد منهم اسم "شيخ المطر" والغالب أن رئيس القبيلة أو شيخ الأرض يتمتع إلى جانب سلطاته بتلك القوى الخارقة.

وتعتقد البامبارا في عناصر أربعة هي الماء والهواء والتراب والنار كما تعتقد (الدوجون) ان الماء مكمل لقوة النار، وليس ضداً لها، لأن النار تحدث بخار الماء الذي يرتفع للسماء، ثم يعود إلى الأرض في هيئة المطر. وتلك هي دورة الحياة. وأما قبائل (الدنكا) بأعالي النيل فيعتقد بعض عشائرهم أن النار من أجدادهم، ولذلك من المحرم عليهم أن يطفئوها. وبعض عشائرهم يعتقد أن الماء هو جدهم. ولذلك لا يستعملونها إلا طبقاً لقواعد دقيقة.

وعلى ساحل غينيا يقدس الناس القمم العالية، والرياح؛ لأن لها آلهة؛ كما أن قوس قزح والضباب إلهان عند قبائل (الأوبانجي) يرمز لها بصورة كبش أو أفعى أو ضفدع. والريح إله لأن له صوتاً ناطقاً. كما يعتقد آخرون في غرب الكمرون بأن قوس قزح حيوان خطر؛ وأما الأقزام فتعتقد أنه قوس الصياد الذي في السماء وقبيلة (السوازي) يسمونه "أمير السماء".

وتعتقد قبائل (كردي) أن الشمس والقمر افترقا من قديم الزمان على أثر شجار تماسكا فيه، وجرح القمر في وجهه فظهر فيه الكلف.ومنذ يومئذ لا يظهران مجتمعين. وتؤمن (المسار) بأن الشمس والقمر والنجوم كائنات حية، وأن القمر زوج الزهرة، وأن النجوم من نسل الشمس والقمر، وكلما صغر النجم دل ذلك على حداثة سنه. ويرى (البوشيمان) في جنوب أفريقيا أن النجوم والقمر آلهة عظيمة، تمدهم بالصيد والمطر. ويعتبر (السوازي) أن الشمس ذكر ويشبهونها بالملك وأن القمر أنثى؛ وأن تغير أوجهه يسبب الأحدث المختلفة. ويعتقد (الدوجون) أن تابع الشعري اليمانية هو الذي تولد منه الكون، وأنه هو الذي ينظم فصول الزمن وأوقاته.

الفصل الثاني

مجمع الآلهة – العبادات – فكرة نشأة الكون

الإله العظيم:

يبدو أن جميع شعوب أفريقيا تعتمد بوجود إله متعال خالق للكون، إلا أنهم يختلفون اختلافاً كبيراً في تقدير سلطانه في تصريف أمور الدنيا، والفكرة السائدة بينهم هي أن هذه الإله يبعد بعداً شاسعاً عن العالم، بحيث يصعب على الناس الاتصال له، وأن الأخرى أن توجه العبادة إلى من دونه من الآلهة؛ إذ أنهم المكلفون من قبله بالسهر على أمور هذه الأرض وهم رسله ووكلاؤه.

وتطلق قبائل (دوجون) اسم (أما) Amma على الإله الخالق. وله عندهم المكانة العليا، يتضرعون له في كل مناسبة، ويذكرون اسمه قبل اسم أجدادهم. وفي كل بيت عظيم من بيوت الأسرة يقام له محراب على شكل مخروطي من الطين اليابس، كما ترى له على طرق السفر محاريب أخرى لحماية المسافرين. ويقدم رب الأسرة القرابين إليه. وله أيضاً كاهنات خاصات به، يتعرضن لأزمات عصبية، يزعمن أن في قدرتهن الكشف عن الغيب. غير أن العبادات التي توجع إلى هذا الإله العظيم أقل عدداً من العبادات التي توجد إلى الأجداد الأسطوريين.

وعند (البامبارا) يعرف الإله الأعظم باسم فارو Faro ولهم عنه فكرة عجيبة، فهو نفسه مخلوق من السديم الأزلي، وصار إله الماء، ثم تغلب على إله الأرض (بمبا) Pemba ونظم شئون العالم. ويتصورونه في صورة كائن مائي لونه بين الأشقر والنحاسي، مزدوج الجنس، يمثلونه في صورة عروس البحر، لها رأي بيضاء اللون، وأذناها على هيئة زعانف تساعدها على الحركة في الماء. وهذا الإله غذاؤه دم الأضاحي وحبات الطماطم وحساء الذرة. وهو الذي ينزل الغيث، ويهب الحصاد ويمنح الخصب للإنسان فيكثر نسله، ويعلم البشر فنونهم وصناعاتهم، وهو حافظ الأرواح ومصرف أمور الكون. والعواصف والمطر الجارف من فعله؛ والجفاف والعقم من مظاهر غضبه، والصاعقة سلاحه. ويستطيع هذا الإله أن يظهر في أشكال عدة –: في شكل غزال أو كبش أو امرأة حسناء، أو ينحدر في صورة سيل جارف، أو يعلو في صورة ضباب كثيف يرتفع من أرجاء المستنقعات. ومكانه المحبب إليه هو ماء نهر النيجر. وله من الملائكة والجن في كل مكان عدد يستخدمهم. وكاتم سره الخاص حداد مقطوع اليد، لا يجوز أو يلوث محرابه طمث امرأة، ولا يجيب دعوة الداعي إلا عن طريق كهنته.

ويتخذ هذا الإله الأعظم أسماء مختلفة لدى القبائل التي تعيش على امتداد ساحل غينيا. فهو يعرف في (أشانتي) باسم (نانا) Nana وعند (إيفا) باسم (ماوو) Mawou، و(أولورن) Oloroun عند (اليوروبا) و(شوكو) Choukou عند (الايبو). ورغم أنهم يقدسونه ويصفونه بأنه أزلي خالق للكون، لا نهائي، يعتقدون ألا أهمية له كبيرة في تصريف شئون الدنيا. وله معابد قليلة تتخذ على شكل أسطوانة من الطين، ذات شعب ثلاث تسمى (شجرة الله). ويعتقدون أنه يعيش في سماء لا يدركها البصر، وأنه كل الآلهة الصغرى بشئون الأرض. ويفسر أهالي (توجو) تباعده عن الناس بأنهم كانوا لوثوا سماءه بأيديهم القذرة.

وفي غرب الكاميرون يسمون الآلة الأعظم باسم (نيامبي Nyambe) وهو الذي خلق الأرض، ولهذا يظن بعضهم أنه يعيش في باطنها إلى جوار الموتى. وتلقبه بعض القبائل باسم (الموت) فهو غله مؤذ يعذب الناس ويقول آخرون أنه يعيش في أعلى عليين وراء القمر أو وراء أطباق السماء وأنه نزل إلى الأرض على نسيج أحد العناكب يحمل الرجل والمرأة ليسكنها الأرض، وهو بصير بكل شيء،

إلا أن أحداً لا يستطيع أن يصل إلى مكانه. فإذا ظهر الهلال في السماء رفع الداعي أكفه بالضراعة إلى الله قائلاً: "إني لست من عبادك الجشعين" وبعضهم يتخذ من ازدواج مكانه ازدواجاً في ذاته، فيكون هناك آلهان اثنان: إله تحت الأرض وإله فوق السماء، ويعللون عزلة إله السماء وبعده عن الخلق بأنهم عصوه بقتل الحيوان وسرقة النيران. ولما كان قادراً على كل شيء فهو مكتف بذاته لا يحتاج لأحد، ولذلك لا يذكر الناس إلا قليلاً..

وتؤمن قبائل (أوبانجي) بان الله كما أنه لا تتناهى قدرته، لا تتناهى رحمته. ولهذا لا يخشونه، ولكن يتقربون إليه بأقوال وإشارات أصبحت آلية. وقربانه لديهم بعض فتات الطعام يلقي به في الغاب. والقسم العظيم باسمه: "السماء ناظرة إليَّ". وأما الأقزام فيعترفون فيما يظهر بإله عظيم بعيد كل البعد عنهم لا يعنيه شيء. ويتقربون إليه ببواكير الصيد وبشائر الفاكهة الجديدة..

وفي كينيا ومناطق البحيرات الكبرى، الإله الأعظم (مولونجو) Mouloungou قادر على كل شيء. حاضر في كل مكان، وله أربعة عروش يقع أحدها على قمة جبل كينيا. ولا يعبدونه إلا لماماً، ولكنهم يذكرونه كثيراً، قائلين مثلاً "حماني الله في ليلتي" وبيده إنزال الغيث وقد يمثل بالشمس، في عبارات غامضة.

وأما قبائل أعالي النيل فتعتقد باله سماوي عظيم خلاق، ينزل الغيث لا يعرفون له صورة مادية، لأنه لا شكل له ولا تدركه الأبصار، وإنما يدركونه بالعقل، فهو روح عالمي هو مصدر الخير والشر على السواء. فإذا التبس عليهم معرفة شيء فذلك الشيء إله في نظرهم. ودعواتهم موجهة في غالب الأمر إلى وسطائه من الآلهة الصغرى، فإذا عجز هؤلاء عن إجابة دعواتهم انصرفوا عنهم ولجئوا إلى الآلة العظيم آخر الأمر..

وفي جنوب أفريقيا يعتقد قبائل (دامارا) في إله خالق، ويمثلونه بأمهر الصيادين يسكن وراء النجوم حيث يأوي الموتى في ظلال الشجر. أما (البوشيمان) فليس لديهم فكرة واضحة عن إله خلاق، وإنما يزعمون أنه قذف بحذائه إلى السماء فخلق القمر بهذه الحركة، ثم اعتزل منصبه — وعند (الهوننتوت) إله يسكن السماء، وهو أحد قدامى أبطالهم جرح في ركبته في إحدى المواقع. ويلقبه (السوازي) بالرئيس الأكبر وله رسول بينهم يعف باسم (الساق) ولا تؤدي لهما عبادات.

الآلهة الصغرى أو آلهة المرتبة الثانية:

والآلهة الصغرى جماعة موكلة من قبل الإله الأعظم بتصريف شئون البسيطة: ويختلف عددهم تبعاً للبلاد والأقاليم. وعامة السودانيين يتخذون أجدادهم الأسطوريين أو أبطالهم المؤسسين لمدنياتهم، بدلاً من هؤلاء الآلهة الصغار. ولدى قبائل (لوبي) ما لا يقل عن عشرين إلها صغيراً. ويختص كل واحد منهم بمهمة ما: فأحدهم يحمي الناس من المرض، وآخر يحميهم من اللصوص، وثالث يهب نعمة العقل والذكاء، ورابع يمنح الآدمي الخصب والنسل، وآخر يختص بوفرة الحصاد، أو يحفظ الناس من أذى السحرة الخبثاء، وآخر يراقب النساء ليمنعهن من خيانة أزواجهم. وهكذا، حتى أن أحدهم يصيب الإنسان بداء المفاصل (روماتيزم)..

فإذا اتجهنا إلى ساحل غينيا نجد أنه هو العش الذي يسود فيه الاعتقاد بهؤلاء الآلهة الثانويين. ولهم بها أسماء تختلف باختلاف القبائل ويبلغ عدد هؤلاء الآلة بين قبائل (يوروبا) قرابة أربعمائة ينشرون حمايتهم على القرى والعشائر. والآلهة عند قبائل "أشانتي" مائيون، يرمز لهم بأحواض من نحاس. وعند قبائل "إيفة" زراعيون، يسكنون الإحراج منهم الذكر ومنهم الأنثى؛ إذا اشتركت عشيرتان في تقديس إله بعينيه حرم عليهما القتال والنزاع.

وفوق هذا الحشد من الآلهة الصغرى يوجد في تلك المناطق نفسها إلهة الأرض أو الإلهة الأم، يتصورونها زوجاً لإله السماء. ويحتفل لعباداتها احتفالات سنوية فيها شذوذ أحياناً، ومنها إله للجدري، ومنها إله الماء والبحر. ومنها إله شرير يدعى "لجبة Legba" وهو في الوقت نفسه مصدر الحياة ومصدر الكوارث، يتجمعون لاستعطافه واسترضائه وله معبد في كل قرية في أفسح ميادينها، وليس له كهنوت خاص به. وأما أله الجدري فكهنته يقومون بواجب صحي، إذ عليهم عزل المرضى ودفن الموتى...

وفي تلك الأرجاء يطلق اسم "فودون Voudon" على كل شيء مقدس. ومنها نشأة العبادة الدينية "فودو Voudou" المعروفة في جزر الأنتيل، ويقل عدد الآلهة الوسطى في "أوبانجي"، إذ لا يعرف هناك إلا ثلاثة آلهة: للسماء والعواصف وللأنفس.

وتتوجه قبائل أعالي النيل إلى رسول الإله الأعظم. وليس هذا الرسول سوى البطل المؤسس للقبيلة، والذي جلب إليهم الحضارة. ويزعمون أنه اختفى أثناء عاصفة هوجاء. وتجل قدرته في المحاريب وفي شخص رئيس القبيلة حين يجلس على عرشه..

وأكثر آلهة قبائل (البانتو) وقبائل جنوب أفريقيا آلهة صيد. ويقدمون إليها جزءاً من حيوان الصيد، كالجمجمة مثلاً، قرباناً لها. ولآلهة الصيد معابد وكهنوت عند قبائل (أفيمبوندو).

الجن:

يوجد في كل مكان بتلك الأرجاء ما يسمى (جن الغاب). وبعضهم يصعب تمييزه عن الآلهة الصغرى. وبعضهم الآخر يشبه الإنسان والحيوان.

فمثلاً يوجد عند قبائل (الدوجون) فريق من الجن يدعى (ييبان Yéban) وهم مخلوقات صغيرة الجسم نحيفة، لهم رؤوس ضخمة، وهم سلالة الإنسان الخالد، ويسكنون الكهوف والأجمات الملتفة، وقد تحمل منهم النساء. وهم الملاك القدماء للأرض. ومنهم فريق يدعى (أدمبولو) Adoumboulou وهؤلاء هم الذين خلقوا الموت. لهم لحي طويلة، وأجسام ضئيلة. وفريق آخر (جينان Gyinan) وهؤلاء يتميزون بأن لهم ذراعاً واحداً، وساقاً واحدة، وشعراً أخضر اللون، ويسكنون الأشجار وهم يسببون المرض.

وأما عند (الماندانج) فيعرفون باسم (وكلوو Woklo-ou) وهؤلاء يتجولون حول البيوت ليسرقوا الطعام. ولذلك ترى النسوة يحرصن على تغطية الأواني ويمنعن أطفالهن من الخروج ليلاً خوفاً عليهم من أذاهم. وتعرف الجان عند (البامبارا) باسم (دازيري Dasiri) وهي تحرس الدور وأخرى تسمى "سوبا" تحرس الطرق. وتقدم لهذه القرابين من ثمر الكولا أو من خيوط القطن حتى يتخلص الناس من أذاها..

وتزعم قبائل (مندي) أن لها جانا تكشف المستقبل للشخص في أحلامه، إذا قدم لها قرباناً ولتلك الجان أشكال مختلفة بعضها على شكل سلسلة من الذهب، والآخر على شل صفارة، وثالث على هيئة رجل أشيب ذي لحية بيضاء يستدرج المسافرين غلى الأدغال.

وفي ساحل الذهب تكثر الجنيات وعفاريت الغاب وهؤلاء بالمثل صغار الأجسام، لهم رؤوس كبيرة، ويغطي أبدانهم شعر كثيف. فإذا أذاهم إنسان أصابوه بالجنون. والجنيات عند (الأشانتي) لها قدم في أعلى الرأس، ولها ساق معكوسة الوضع، وهي تصفر بدلاً من التكلم ومع هذا فهي عون للمتطببين في أبرائهم للمرضى..

ولدى (السارا) مردة تسمى (سوSu) ويزعمون أنهم عاصروا الإله العظم قبل نشأ الخليقة وهم الذين يضعون قوة النمو في البذور ويخرجون الأجنة من ظلمات الأرحام إلى نور الوجود، وينزلون المطر. ويعيشون في باطن الأرض أو في جوف بعض الطبول وعندهم جان يدعى (كوئي Koï) وتخشاه المرأة خوفاً من اعتدائه على عفافها، لأنه يستطيع أن ينفذ إلى رحمها، ولذلك ترى النسوة يلبسن منطقة يتدلى منها بين الفخذين قطعة مستطيلة من الخشب ليضللن بها هذا الجني الفاسق.

وعند (الأوبانجي) حشد من الجنيات، وهي أرواح مؤذية تجتمع ليلاً لتغتال نفوس الناس، لها أصوات كمواء القطط تسمع حول البيوت. وهي تستطيع أن تحل في الأبدان، ولا تطردها منها إلا حفلات (الزار)... ويتصورون جن الماء جناً أبيض اللون ولهذا يقدمون إليه قرباناً أبيض اللون كذلك، كالدجاج الأبيض والبيض والذرة.

وعند (المانجا) نجد الجن على هيئة ثعبان ضخم، وقرينته حيوان بحري. وأما جن الغاب فهو مخلوق قزم، مشوه الخلق، له شعر طويل وجسم قوي، وهو يجوب الغاب حاملاً رمحه تتبعه كلاب الصيد، فإذا التقى برجل طلب إلى النزال. ومع هذا فهو جني طيب القلب؛ وقد علم الإنسان الصيد واستعمال النار:

العبادات:

تتخذ معابد قبيلة (دوجون) أشكالاً متباينة، فبعضها دور مربعة الشكل، مزينة بنقوش وصور رمزية؛ وبعضها ذات أبراج اسطوانية عالية؛ وبعضها تطل واجهته على حافة صخرة منقورة. ونجد في داخلها المحاريب والمذابح، وهي حجارة مقعرة أو مخروطية، وبها كل ما تتطلبه العبادة من أدوات.

والحقيقة أن بيت رب الأسرة (جنا) Ginna هو نفسه يعد معبداً؛ إذ أن بواجهته تجاويف ذات عدد رمزي تحوى أدوات مقدسة لأفراد الأسرة. فرب كل أسرة هو كاهنها. وأما الكاهن الكبر للجماعة كلها فيعرف باسم (هوجون) Hogon مقدس لديه. ويزعم أن ثعباناً معروفاً باسم ليبه Lébé يمثل الحد الأول، يسعى إليه كل ليلة، فيلعق جسمه ويمنحه القوة كي تطول حياته حتى غده. ويجب ألا بتصبب عرق من جسده، وإلا ذهبت قواه. ولذلك يفرض على الناس أن يحملوه على ظهورهم. وإذا لمست قدمه حقلاً مزروعاً أصابه الشلل والجفاف؛ لأن أثره كأثر الشمس المحرقة. أما لعابه فهو الذي يسبب رطوبة الجو.

وفي عرفهم أن الموت يطلق ويشتت القوى الحيوية للميت، ويحدث اختلالاً شاملاً في توازي القوى ويظهر هذا الاختلال بوجه خاص في خمير الذرة وهو القربان الذي يصب على محاريب الأسلاف. وإذا سكر قوم وعربدوا من الشراب احتفظوا بالقوى الحيوية لموتاهم الذين يرضيهم ذلك لأنه يعين على توزيع قواهم الحيوية بين محاريبهم. فيحدث التعادل. وقد صرح (أوجوتملي Augotemmeli) للعلامة (جريول)

بقوله: "إن شرب الخمر إلى حد السكر يكاد يكون فرضاً دينياً على الطاعنين في السن: لأن عربدتهم تبدو اختلالاً في الظاهر ولكن الحقيقة أنها وسيلة من وسائل الاحتفاظ بالنظام الطبيعي لتوزيع القوى". والأنجاس: وهم طبقة معفاة من مراعاة المحرمات (مثل الحداد أو بعض أفراد الأسرة الذين اختيروا بوسائل غيبية) يستطيعون وحدهم التصرف في القوى الحيوية المندفعة من الموتى دون أن يصيبهم منها أذى لما يتمتعون به من مناعة.

والغرض من نحر الذبائح للقربان هو استعادة القوى الحيوية. وكلمة (قربان) في لغة (الدوجون) مشتقة من كلمة معناها (إعادة الحياة). فالمرض وارتكاب المحرمات تسبب فقدان بعض تلك القوى، ولا يمكن استعادتها إلا إذا سال دم الضحية وصبغ به المحراب، أو سكب عليه خبيصة مطبوخة من الذرة. وبهذه الوسيلة يستعيد المتعبد تلك القوى التي ضاعت منه، كما تستعيد أسلافه قواهم؛ لأن القرابين والضحايا تحدث شركة روحية بين الحياء والأموات. والمثل السائر بينهم هو (إن كل فرد يمنح الجميع ويأخذ من الجميع)..

وأعظم الأعياد الدينية عند (الدوجون) هو عيد (سيجي Sigui) وهو يتكرر في نهاية كل ستين عاماً، احتفالاً بتبديل القناع الأكبر القديم بالقناع الأكبر الجديد. والقناع الأكبر عندهم هو حامل روح الجد الأول للقبيلة. وفي هذا احتفال يخصصون جماعة من المراهقين حملة الأسرار الدينية، لخدمة هذا القناع صيانته. والقناع عبارة عن تمثال من الخشب يمثل أفعى هائلة تنتهي برأس دقيقة. ويضحي عندئذ بحيوان وطير، لننتقل روح تلك الضحايا وتحل في تلك الأفعى الخشبية، فتدب فيها حياة رمزية. وكل قرية لها قناعها الخاص بها. ويلبس المراهقون الذين يشتركون في هذا الاحتفال لباساً مركباً من لباس الأنثى والذكر. وتستمر هذه الأعياد اثنين وعشرين يوماً، يقضيها القوم في التنقل والرقص واحتساء الخمر..

والغرض من هذه الاحتفالات أن تغفر خطايا الشباب الذين كانوا سبباً في موت جدهم؛ ويهدف بها في الوقت نفسه إلى تجديد الهيئة الاجتماعية بإمدادها بقوى مجددة لحيويتها، وإلى توثيق عرى الأخوة والاتحاد الروحي بين أبناء القبيلة، باشتراكهم في هذا الشراب، وأما القناعات العادية، وهي من خشب لين، فتتخذ أشكالاً رمزية معروفة، تمثل الحيوان (كالوعل أو الأرانب أو القرد أو الفهد) أو الطير، أو شخصيات، أو أشكال بيوت. وهذه الأقنعة هي أدوات الرقص في الاحتفالات. ويحتفظ بها في مأوى خاص بها. والنقوش الرمزية ذاب الطابع الخاص تتباين ألوانها ويستعمل فيها التربة، والرماد، ودقيق الأرز، وصدأ الحديد، ودم ذبائح الضحية. وهذه الصور يقصد بها إلى الاحتفاظ فيها بالقوى الحيوية للموتى. ويصحب هذه الاحتفالات رقص في الميدان الكبير أو فوق سطح المنازل. ويسير موكب الأقنعة حسب نظام مقرر. لكن نوع خاص من الرقص يؤديه في الحلبة. ولهذه الأقنعة محاريب خاصة بها، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالشعائر التي تقام طلباً للخصب أو استسقاء للمطر.

البامبارا:

تصف مدام (ديترلين) العبادة عمد قبائل البامبارا بقولها: "إنهم يعبدون السماء، وأركان الأرض الأربعة، والجن، ويتخذون من الحجر أو الشجر أو أماكن الماء محراباً لذبح الضحية، كما يذبحون الضحايا عند المحارب المحفوظة في المعابد الخاصة أو العامة. وكل بالغ إذا كان رب أسرة مالكاً لمسكن وأجريت له عملية الختان فهو أهل لأن يقوم بالتضحية".

وفي اعتقادهم أن القوى الحيوية للذبيح تنتقل إلى المعبود الذي تقدم إليه الضحية الآباء، أو الجن، أو (فارو) في الشعائر الزراعية. ويضحي في العادة بحيوان أليف (طير، أو كبش، أو ثور) إلا إذا كان المتقرب صياداً فلابد أن يقدم حيواناً برياً. ويلزم أن تطول مدة احتضار الذبيحة لأن شكل حركاتها يتخذه العرافون للتكهن بالغيب. ويوزع لحم الضحية على الحاضرين، وفيه رمز الوحدة الروحية بين الجميع وفي الماضي كانت العادة أن تقدم ضحية بشرية، في الأحوال الخطيرة التي تهم المملكة.

وكانت الضحية في الغالب شخصاً أشقر اللون (عدو الشمس) وهو اللون الذي يفضله الإله (فارو) وتتغير مراسيم التضحية حسب الظروف فهي:

1 – في المشاكل الخاصة بالحكم كان الشخص يشطر عرضاً إلى شطرين بحبل يشد حول بطنه وذلك في حضور الملك الذي يفرض عليه أن يحتفظ بسكونه دون أن يبدي حراكاً ثم يحمل الشطر الأسفل فيلقي في النهر قرباناً للإله (فارو) وأما الرأس فتدفن تحت عرش الملك.

2 – وفي الأزمات المالية يغرز في حلق الشخص عصا من الغاب الهندي فتنفذ إلى بطنه.

3 – وفي حالة وفاة عدد كبير من أسرة واحدة، يتقدم رب الأسرة إلى الملك ليحصل منه على إذن بتضحية شخص أشقر. فإذا ذبح هذا أخذ لسانه وأنفه وعيناه لتأكلها الأسرة. وأما الجمجمة فتدفن في فن المسكن. وكانت العادة عند قبائل الدوجون قديماً أن يضحوا بشخص أشقر اللون في احتفالهم الديني بتجديد الكون.

والعبادات المنزلية تستهدف الاحتفاظ بالقوى الحيوية للأسرة، ودفع كل خطر قد يصيب الجماعة، واستقبال أرواح الموتى ريثما تحل في أجسادها. وتفرد في البيت حجرة تضم المحاريب الخاصة بكل فرد منها، والمحاريب العامة للجماعة، وتصور جدرانها بصور ترمز للأموات والأحياء وأجزاء الكون. وفي فناء البيت يوضع الكرسي الخاص برب الأسرة مرتكزاً على جثة شخص أشقر. وعلى بضعة أشياء رمزية. ويحيي هذا الكرسي أفراد الأسرة كل يوم ويقدمون له القرابين من شراب أو تمر أو ضحايا. والغرض من ذلك أن يزيدوا قوى رئيسهم.

وفضلاً عن هذه الشعائر المنزلية توجد شعائر جماعية للقرية للآلة (فارو) أو للأسلاف، تقدم فيها ضحايا من الضأن أو الطير، أو قرابين من القطن وثمر الكولا، على أن تكون كلها ذات لون أبيض.

وتدفن في أسفل المحاريب الخاصة بالأسلاف، جمجمة، جمجمة وأدوات زراعية.

وإلى جانب هذه العبادات اليومية العادية، تقام عبادات موسمية. فمثلاً في نهاية كل شهرين تجمع قمامة القرية التي يزعمون أن بها قوى حيوية كثيرة — ثم تحرق بعد ذبح الضحية، ويقدم جزء من رمادها إلى إلهم (فارو). والبقية إلى أعضاء مجلس (الكومو) الديني ليخلطوه بطعامهم. وكذلك تنجر الضحايا قبيل موسم الأمطار وبعده حول شجرة مقدسة أو على شاطئ نهر، ويقترن هذا العيد باحتفالات للغناء والرقص واللهو، وكذلك تقام شعائر لاستقبال العام الجديد وتوديع العام القديم. والطقوس الزراعي لا حصر لها في هذه الجماعة التي للزراعة عندها المقام الأول.

الشعوب السودانية الأخرى:

العبادة عند السودانيين تقوم على أساس محلي، هو الأسرة والقرية دون ما واسطة من كهنوت.

فقبائل (مندي) تقدم القرابين في أوقات الحرث وبذر الحب والحصاد، أو إذا انتشر بينهم مرض. وتقام حفلات التعبد حول قبر أو في مكان مقدس. ثم ينادون أسماء موتاهم بترتيب الأقدمية، ويدعونهم، ويقدمون لهم قرابين من الأرز والدجاج، ثم تقام ولائم يقدم فيها الأطفال على الكبار، ثم يترك شيء من الطعام بعد الحفل لتلتقطه الطيور، أو يأكل منه عابر السبيل، فإذا وجد كما هو في اليوم التالي دل ذلك على غضب الأجداد، ولابد من إعادة الحفل حتى يرضوا عن ذريتهم.

ولقبائل (لوبي) محراب أمام كل بيت، وقد يكون على سطح البيت وقربانهم في محاريبهم خمر، أو حساء ذرة مطبوخة، أو ذبح دجاجة. وكل ذلك مقرون بالدعوات. وأما في داخل البيت فتوضع أصنام من الطين اليابس تمثل آلهة الأسرة أو آلهة الأسر الحليفة، لحراسة الدار ويتولى رب الأسرة إقامة الشعائر الدينية بالنيابة عن أهل بيته. غير أن كل فرد له حق القيام بشعائره الخاصة. فإذا حدث أن انتقلت الأسرة إلى مسكن آخر، حملت معها أصنامها. فإذا تعذر نقلها لضخامتها قطعوا رؤوسها حتى يسهل نقلها.

على ساحل غينيا:

تتميز بالعبادات في تلك الأرجاء بوجود الكهنوت والجمعيات الدينية للآلهة الصغرى. ولكل إله لديهم كهنوت خاص به، كما أن لكل إله معبداً، وهناك معابد كبيرة من الطين الصقيل المزين بنقوش مختلفة الألوان. وليس من الحتم أن تقام الشعائر الدينية في داخل تلك المعابد الكبيرة، فقد تقام في محاريب صغيرة في الحقول أو الغابات المقدسة؛ أو في كوخ متواضع. وفوق ذلكم فكل بيت فيه محاريبه، ويحتوي كل معبد على أدوات متنوعة. ففي معبد إله الجدري نجد أنواعاً من الجلود والعظام، مع ورق من شجر معين، وتراب من مكان معين؛ تخلط بعضها ببعض. ويقدم المتدينون للكاهن الهدايا المتنوعة: كالماعز والدجاج والزيت وخمر الذرة أو غيرها من الخمور، والقماش. ويقوم المتعبدون من الكاهن. فإذا نحرت الضحية وزع شيء من لحمها على الحاضرين.

وفي داخل أديرة (أشانتي) نجد أن أوعية من نحاس أو سلالاً تحتوي قطعاً من حجر الصواعق، والسن؛ والقرن. وفي داخل أديرة (داهومي) توجد صور منحوتة لوجوه لا يرفع عنها الستار.

ولكل إله يوم خاص يعبد فيه. ولا يجيب الإله على سؤال سائل إلا بلسان كاهنة إذا كان في حال انجذاب وغيبوبة حين تتقمصه الأرواح كما يقولون، مؤتزراً مسوحه الكهنوتية. وغالباً ما تكون القرابين من زيت النخيل أو ثمار الكولا أو القواقع. ويضحي بالطير والكلاب والخنازير والغنم والثيران، حسب الملابسات، طبقاً لما يتطلبه إليهم الإله. الدم من نصيب الآلة، أما اللحم فيوزع على الحضور لإدماجهم في الوحدة الروحية. وغرضهم من نحر الضحية نقل قوة الحياة وقوة الإخصاب منها إلى المتعبد. وفي الوقت نفسه قد تكون كفارة عنه، وفي الزمن الغابر كانوا يتقربون للآلهة بالضحايا البشرية؛ وهذا إنما تكون في المناسبات الخطيرة؛ فالكوارث أو عند موت الملك أو في الأعياد السنوية.

والعجيب أن الضحية من البشر كان يتقبل ذلك عن طيب خاطر، اعتقاداً منه أن روحه ستحل بعد قتله في جسم شخص خطير المكانة.

وفي المعابد المنزلية يقيم الصلاة أكبر الأعضاء سناً، وهو عاري الكتفين، رمزاً للتوقير والتعظيم. أما الحاضرون من غير رجال الدين فيبقون بعيداً جاثمين على الركب. وفي العبادات التي يؤمها رجال الكهنوت، تكون مهمة الآخرين القيام بالغناء والترتيلات أو التصفيق.

وتتبين موهبة رجال الدين وهو في سن مبكرة. ويستمر في مهمته مدى حياته. وغالباً ما يكون للكاهن صناعة أخرى، كالصيد، أو الحدادة، أو العرافة، أو بيع التمائم المقدسة. ولكل إله تمائمه ومخلفاته الخاصة. وفي (داهومي) يلقبون الكاهن باسم "حارس المقدسات". ومنصب الكهنوت أما وراثي، وإما أن تدل عليه عوارض مس الجن. والكاهن هو أمين الصدقات والنذور، ومع ذلك يقولون "أن الله هو الذي يعطيه القوت!".

وقد تستغرق مدة التدريب على الكهانة من سنتين إلى ثلاثة، يفرض فيها على المتدرب مراعاة العفة التامة والامتناع عن شرب الخمر، والشره في الطعام، أو الاشتباك في شجار. ويعيش الذين تحت التدريب في رعاية كاهن وتحت إشرافه. ففي السنة الأولى يلقنون شعائر التطهر وينامون في الإخراج المعمورة بالأشباح والأطياف. وفي السنة الثانية يتعلمون الطلاسم والتمام والمحرمات الدينية، وفي الثالثة العرافة والكهانة. ويعتبر الكاهن في مرتبة (زوج الإله) وهو مكلف بخدمة بيته (صيانة معبده) وتقديم طعامه (أخذ النذور والقرابين والضحايا). كما أنه يعتبر (لسان الإله)

وهو وحده الذي يعبر عن إرادته بصوت خاص. ويجوز أن يكون للإله كاهنات من النساء. ويخضع المتدينون أيضاً لتدريب جماعي في الأديرة. وقد وصف (بارندر) Parrinder أحد هذه الأديرة في داهومي بقوله: "دير إله السماء عبارة عن مكان مكشوف في الهواء الطلق، يحيط به سور، وحوله أكواخ يعيش فيها المبتدئون. وفي وسط المكان شجرة ضخمة عظيمة الفروع وارفة الظلال، يصبغ الدم جزعها، وحولها صف من محاريب وأشياء مقدسة، من عصيٍ وأعلام وآنية مقلوبة تحت أغطية من القش. وتجثوا الكاهنة على ركبتيها عند إقامة الصلاة، بينما تدق الطبول وتصدح الأغاني في سكون الليل".

ومدة الترهب في الدير للبنات أطول منها للصبيان. فقد تستمر ثلاث سنوات. ولابد للمبتدئ أن يغير من شخصيته، وأن يتنكر لأهله وأصدقائه، ويقطع الصلة بهم، وأن يتعلم لغته على وضع جديد. وغالباً ما يطلب الكاهن إلى أسرة ما أن تخصص أحد أطفالها للخدمة الدينية. ومحرم على كل إنسان من غير رجال الدين أن يدخل الدير أو يتصل بساكنيه، حتى أن الأسرة حين تقدم الطعام لأبنائها تضعه لهم خارج أسوار الدير. وعندما يلتحق المبتدئ بالدير يجز شعره، ويعري صدره إلى وسطهن ولا يعطي إلا قعباً وطبقاً. ولكل من البنات والصبيان مكان خاص به.

فالعفة واجب مقدس، وكانت عقوبة من ينتهكها الإعدام. وتدور الحياة في الدير حول أداء التراتيل والصلوات، وحركات الرقص، والتثقيف الديني، والتدريب على الورع، كما يتعلم المبتدئ صناعة أدوات من نسيج الألياف النباتية لاستعمالها في الأعياد وتوشم وجههم ورقابهم وصدورهم وظهورهم وأفخاذهم، وهي المواضع التي تقع عليها عقوبة الضرب من الإله إذا هم باحوا بالأسرار المقدسة التي لقنوها. وقد يسمح للمبتدئين بالخروج من الدير بعد تسعة أشهر بشرط أن يختفوا ويتنكروا فيظنهم من يراهم أشباحاً أو أرواحاً. وعند انتهاء مدة التدريب يحتفل بالخريجين احتفالاً عظيماً، تحضره جميع الأسر، حيث يقطعون الوقت بالرقص وصب الخمر قرباناً للآلهة ويدفع أهل الخريج منهم فدية، لأن هؤلاء الخريجين يعتبرون كأنهم أسرى قد جاءوهم من بعيد. وكثيراً ما يعود بعضهم إلى الدير ليقضوا به فترات للخلود وللتعبد.

وفي البلاد التي يسود فيها نظام الملكية، ولاسيما في (الأشانتي) و (داهومي) تحتل عبادة الملوك القدماء مكاناً بليغاً من الأهمية؛ لأنهم يزعمون أنه يتوقف على رضاء هؤلاء الموتى العظام نعمة خصب الأرض وتكاثر النسل.

وفي قبائل (أيبو) تعد عبادة الأرض هي العبادة الرئيسية، وكاهن الأرض هو صاحب السلطان في تنفيذ الشرائع المدنية والأخلاقية. والصناعات الخزفية متقدمة تقدماً ملحوظاً في تلك البلاد، وفي كل أفريقيا السوداء. ولها أغراض دينية ورمزية.

أفريقيا الاستوائية وأعالي النيل:

تقام العبادات في غرب الكاميرون داخل مكان عار عن الشجر والنبات، على شكل دائرة، يحيط به سور من الشوك قريب من القرية، والنساء دور هام في الأعياد الدينية الزراعية التي تقام هناك. وعبادة الأجداد لدى قبائل (أوبانجي) تقام حول فرع ذي شعب من فروع شجرة مقدسة مغروسة بالقرب من بيت الأسرة، تعلق به جماجم الصيد وآلاته. وتوضع فيعه القرابين، ويتجمع حوله أفراد الأسرة للولائم الدينية. وحول مسكت رئيس العشيرة، يقام محراب الأجداد، وهو عبارة عن مذربين من خشب مقدس، توضع عليهما ثلاث جذوع غليظة. كما توجد بيوت للموتى وهي وتد صغير يحيط بها سور من القش. وهناك شعائر خاصة منها ما هو للعاصفة، ومنها ما هو لإله النفوس.

وعند قبائل (سارا) تقام أعياد دينية زراعية لإله الذرة. وهم يزعمون أن الذرة خرج من يقطنية. يدعي الإله في وقت بذر الحبوب، وتقدم بشائر المحصول قرباناً له ولهم آلة موسيقية يستعملونها في الرقص الديني يزعمون أن روح صاحبها السابق تحل فيها زمناً بعد وفاته وإنما أودعها ملكته الموسيقية. ولهم أقنعة يلبسونها في الاحتفال الزراعي الديني. ولها أهمية عظيمة كما هو الحال في (الكاميرون). ولكل أسرة قناعها الخاص بها وأما قبائل الأقزام فليس لديهم فيما يظهر شعائر دينية كثيرة، بل أن وجود فكرة السحر عندهم محل جدل بين العلماء. ولقبائل أعالي النيل معابد لآلهتهم الوسطى. والمعبد عندهم عبارة عن كوح يضع فوقه بيضة نعام. ولهم في كل عام عيدان كبيران: عيد وقت نزول المطر، وعيد وقت ظهور الثمار. ورؤساء القبائل هم الذين يقدمون القرابين والذبائح في الاحتفال بعيد المطر. وبعضهم مكلف برعاية سلامة الماشية وإنتاجها. ومما يلفت النظر في هذه المناطق كثرة ظهور المتنبئين الموحي إليهم. ولقد لعب هؤلاء دوراً خطيراً في مقاومة انتشار المؤسسات الإسلامية والأوروبية في بلادهم.

وفي أفريقية الشرقية والجنوبية:

تنحر قبائل (كيكويو) الأضاحي لله، ويتوجهون إليه بالدعاء في حالتي الوباء والجفاف، كما يقيمون صلاة شكر له عند جنى المحصول الجيد. وعند تناول الطعام يلقي شيء من فتات المائدة على محراب الأسرة، ويتلى شيء يسير من الأدعية. فإذا نحرت ماشية أهدوا جزءاً منها إلى روح الأجداد. وإذا أقيم عرس دعيت أرواح الآباء والأجداد من الأسرتين لحضور حفل الزواج، تبركا بهم. وارتكاب المحرمات جرم عظيم لديهم يستلزم التطهير منه، التضحية بشاة ذكر أو أنثى، والحنث في القسم جريمة مشئومة، تجر الكوارث. وهي في الغالب قاتلة لمن يتحلل من قسمه، وهو قسم جماعي. وفي قبائل أوفيمبوندو يخصص كاهن للموتى من جهة الآباء – وهذا الكاهن هو رئيس القرية. كما يخصص كاهن للموتى من جهة الأمهات. وأما (الدامارا) فيستلهمون قبل خروجهم للصيد والقنص ناراً مقدسة تمثل عندهم الشمس الطالعة. وفي زعمهم أن الموت قوة تحمل أسباب العدوى، ولذلك يحترسون من وضع أقدامهم على القبور؛

إذ يجوز أن تنتقل إليهم منها عدوى المرض القاتل. وهم يتقربون للموتى من آبائهم بهدايا من التبغ. وتخصص قبائل (سوازي) كوخاً لعبادة الآباء والأجداد، ويقدمون إليهم النذور من اللحم والخمر يضعونها ليلاً على قبورهم. والحفل الرئيسي عندهم (أنكوالا Incwala) يحييه الملك والملكة الأم، ويستمر الاحتفال ستة أيام. ويزعمون أم الملك إذا مات بعث حياً ليزود شعبه بقوى حيوية جديدة. ويحتجب الملك عن الناس طيلة أيام الاحتفال، بينما تشترك القبيلة في الرقص بزي خاص، ومعهم نباتات طازجة، وحبوب مستنبتة، سريعة الإنبات. ويحرم أثناء هذه الاحتفالات حمل السلاح وإراقة الدماء.

(جـ) فكرة الكون وأساطير نشأة الخليقة

شغل مظاهر الكون والخليقة بال الزنوج البدائيين، كما شغلت لب بني الإنسان من قديم، وحاولوا أن يعللوا وجود الجنس البشري على البسيطة، ويحددوا مدى صلته بالكون، فأسعفهم خيالهم بضروب شتى من التفاسير والأساطير، تختلف اختلافاً عظيماً بين بيئة وأخرى، بل قد يحدث اختلاف في التعليل والتفسير بين أبناء القبيلة الواحدة، فتقنع العامة بالتافه من الأقاصيص، بينا تعتقد خاصتهم من عارفي الأسرار بتفسيرات مغايرة، يحرصون على كتمانها. على أن هذه العقائد المتعددة المعقدة عن الكون لم يكتشف منها حتى الآن إلا جانب ضئيل. في مناطق محدودة، ولاسيما بين قبائل (الدوجون) و(البامبارا) بفضل العلامة (جريول Griaule) وتلاميذه. ويكفي أن نقول أنه أمضى عشرين هتكتً في دراسة وتمحيص فكرة الكون عند الزنوج، وتشعب خيالاتها واستجلاء غامضها، وحل عقدها؛ ثم انتهى إلى القول بأنه لا يزال بعيداً جداً البعد عن استيعاب موضوعها. ولذلك فسقتصر منها على صور متفرقة موجزة للفكر عند قبائل (الدوجون) و (البامبارا)، ثم نعرض بعد ذلك عرضاً سريعاً بع التفسيرات والفلسفات عند القبائل الأخرى.

الدوجون:

يزعم هؤلاء أن الإله (أما Amma) خلق النجوم بأن قذف في الفضاء كرات من الطين، وخلق الشمس والقمر بأن سوى كرتين بيضاوين أحاط إحداهما بدائرة من النحاس الأصفر، والأخرى بدائرة النحاس الأبيض، وأن الجنس الأسود ولد في الشمس، والجنس الأبيض ولد تحت القمر، ثم ألقى كرة أخرى من الطين دحا منها الأرض وبسطها من الشمال للجنوب في صورة أنثى، ثم اقترن بها فولدت ابن آوي، ثم ولدت له عدداً من الجن (نومو Nommo) فرأى أحدهم أمه عارية فكساها كساء من لحاء الشجر، غير أن ابن آوي لما رآها عارية اغتصبها فسال منها دم الطمث. وهكذا ارتكبت الخطيئة الأولى، وهي معصية الاقتران بالمحارم، فتدنست الأرض، ثم خلق الإنسان من الطين مباشرة جنساً واحداً، كل واحد منهم يجمع بين طبيعتي الذكر والأنثى، حتى إذا أجريت عملية الختان تميزت الأنثى من الذكر، ووضح الفرق بينهما.

ويزعم الدوجون أن نشأة قبيلتهم ترجع إلى ثمانية أجداد أسسوها منذ نشأة الخليفة. ولهذا فهي تنقسم إلى ثمان عشائر. وكان هؤلاء الأجداد يسكنون السماء ويأكلون من أصناف الحبوب الثماني المباحة لهم. فلما نفدت تلك الحبوب اجترأ اثنان منهم على أكل حبوب (الفونيو) المحرمة، ثم ربا من السماء وكانت هذه فرصة أتيحت للأب الأول لينظم الكون. وهم يتصورون الكون على هيئة سلة من الطين مقلوبة، قعرها يمثل السقف، فالسقف هو السماء، والقاع هو الشمس، وللسماء جهات أربع لكل منهما سلم له عشر درجات – فالشمالي يحمل الإنسان والسماك، والجنوبي يحمل الحيوان المستأنس، والشرقي أنواع الطيور، والغربي الوحوش والنبات والهوام، ثم استولى هذا المؤسس الأول على النار، وخلق منها كور الحداد، فرماه الجن وهشموا أعضائه، فأصبحت ذات مفاصل، فهبط من السقف وابتكر أول حقل، فنشأت الزراعة. ثم تبعه بقية الأجداد. غير أن الجد الثامن وصل إلى الأرض قبل السابع، فغضب السابع وتحول ثعباناً، فقتله الناس وأكلوه، واستسلم هو لهم، وتحمل خطاياهم، وضحى بنفسه لخلاص البشر. وكان الثعبان قد ابتلع الثامن، ثم لفظه من فيه في صورة حجر، فرجع الثامن هكذا إلى الوجود. ويسمى هذا الجد (ليبيه Lébé) وهو سيد الكلام وترتيبه في الوجود التاسع لأنه تجسد مرة أخرى وفي هذا بعث جديد..

والغريب أن كل شيء يستخدمه (الدوجون) من أدوات ونظام في حياتهم اليومية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الأساطير الخرافية ويرمز لشيء منها في دقة متناهية. فصوت آلات الحياكة ونحوها يمثل الكلام والكلام يمثل خيط النساجة، والقعب المستدير يمثل في آن واحد الشمس والرحم. وكذلك نجد واجهة بيت الأسرة مقسمة إلى ثمانية صفوف فيها عشر فجوات. فالصفوف تذكرنا بالأجداد الثمانية. والفجوات ترمز إلى الأصابع العشرة حتى أن تخطيط القرية مصمم على نمط يرمز لإنسان مستلق على الأرض رأسه إلى الشمال، وجسمه إلى الجنوب، فنجد بيت الحداد ومكان اجتماع مجلس القرية، دلالة على الرأس المفكر في الإنسان. وحجر المسن والمحراب يمثلان الجنين الذكر والأنثى. والنقوش والرسوم في المعابد تعين على نمو النبات. والعلامات والإشارات لها دلالات دينية أو ترمز لتقاليد خاصة أو تصور أبراج السماء في صورة تدل على نشأة الكائنات من الماء، وعلى تكاثرها بعد ذلك؛ كما تصور نجم الشعري كأنه هو الذرة الأولى، أو البيضة التي أفرخت العالم، بدورتها دورة حلزونية.

البامبارا:

درست مدام (ديترلين) فكرة نشأة الوجود والأقاصيص التي تدور حولها بين تلك القبائل، واهتدت إلى أن عندهم صورة متحركة (ديناميكية) لهذه النشأة. فهم يزعمون أن الكون كان في البداية فراغاً هائلاً، يتحرك بحركة ذاتية حول محورين حلزونيين، يدوران في اتجاهين عكسيين فانطلقت من بينهما قوة هائلة (زو Zo) نشأ منها العقل (يوم Yo) فلما دار الجهاز في الجهات الأربع الأصلية تكونت عنه عوالم أربعة فالعالم الحاضر هو الثالث، والرابع هو عالم المستقبل. وعلى ذلك تكون قوة الذبذبة هي السبب في تكوين العالم. ثم تبع ذلك نشأة المخلوقات. وأولها اثنتان وعشرون عنصراً هي الخصائص العامة للكائنات، وهي عناصر التفكير. ثم تلا ذلك سقوط مادة ثقيلة (بمبا) Pemba في ذلك الفراغ، فتولدت عنها الأرض. وفي الوقت نفسه يقوم جانب من العقل (فارو)Faro يعلو فيخلق السماء، ثم تهبط هذه القوة من جديد على الأرض في هيئة مطر، فتمدها بالحياة، فيظهر بالتوالي: العشب، ثم العقرب، ثم السمك والتمساح، وحيوانات أخرى مائية. و

كان الإنسان نفسه في بدء خلقه حيواناً مائياً خرج من الماء. ولذلك يزعم البامبارا أن الصيادين (بوزو) هم أول المخلوقات. ثم يتحول الإله (بمبا) وهو رمز الأرض وتربتها إلى بذور (البالانزا) أو الأكاسيا. ثم يجرد (بمبا) هذا من شخصه شخص زوجه (موسو كوروني) Mausso Koroni ثم يتولد الرجال من (فارو)، ويوجهون دعاءهم إلى (بالانزا). وكان الرجال في بدء خلقهم مخلدين: كلما بلغوا التاسعة والخمسين عادوا أطفالاً في سن السابعة. وكانوا يعيشون عراة الأجسام كسالى لا يؤدون عملاً ما، ولا ينطقون إلا همهمة. ولما طلب (بمبا) أن تقترن النساء كلهن به ثارت امرأته (موسو كوروني) وأعمتها الغيرة فجابت العالم صارخة منتقمة من الرجال والنساء ببتر أعضائهن التناسلية (أصل فكرة الختان والخفاض) وهكذا بذرت بذور الاضطراب في الخليقة، ونشرت التعاسة والموت بينهم، ولوثت الأرض الطاهرة. وأخيراً ماتت (موسو) هذه واكتشف (بمبا) ما للدم من قيمة حيوية. وهنالك طلب من الرجال أن يقدموا ضريبة من دمائهم. فلما استنفد دمائهم أو كاد لجئوا إلى (فارو) فهداهم إلى ثمرة الطماطم التي تتحول في أجسامهم إلى دم وإلى جنين. ثم حمل حملة شعواء على (بمبا) حتى هزمه وأبطل عبادة (بالانزا) ولكن الشجرة أنذرت الناس بأنهم منذ اليوم لن يكونوا خالدين.

ثم انفرد (فارو) بتنظيم الكون بعد أن هزم سلطان المادة، فخلق الليل والنهار والفصول السماوات السبع وأجزاء الأرض السبعة، وجعل الناس شعوباً وقبائل، وبين لهم المحرمات، ومنحهم الأقوات من البذور الثمانية. وهو إله الماء، وهو الذي يمسك في قبضته الينابيع الاثنى عشر التي سيطلقها يوماً لتغرق الأرض تمهيداً للإتيان بخلق جديد هو عالم المستقبل. و (فارو) هذا ينتقل في هيئة زوبعة هائلة حلزونية الشكل كل أربعمائة عام ليرقب نظام العالم، ويرمز (لفارو) هذا بقبعة مضفورة من ثماني دوائر كانت في القديم لباساً للملوك والاعتقاد في قوة الأعداد مشترك بين البامبارا والدوجون. وكلاهما يعتقد في رقم (8) ويعتقد البامبارا أيضاً في رقم (7) ويزعمون أن به قوة سحرية رمزية، لأنه مجموع أعضاء التذكير الثلاثة وأعضاء التأنيث الأربعة.

ويجاور البامبارا قبائل (البوزو) وهي تعيش من صيد البحر.

وقد اعتنقت الإسلام سطحياً، وما تزال تعتقد (بفارو) إلهاً خالقاً، وتعتقد بأنه حبة (الفونيو) وهي أصغر شيء في الوجود هي أصل الخليقة.

القبائل الأخرى:

إذا جاوزنا قبائل (دوجون) و(بامبارا) نجد تصورات أخرى لدى بقية القبائل السود. فعند (اللوبي) نجد الاعتقاد بأن السماء عبارة عن قبة معتمدة على الأرض، وأن السماء يسكنها الإنسان الأحمر، وتحت الأرض الإنسان الأسود.

وعند (الكردي) أن النار كانت أول بدء الخليقة، ثم أرسل الله الطوفان، وكانت الجبال من رواسبه.

وأهل (داهومي) يشبهون العالم أرضه وسماءه بوعاء وغطاءه فالقسم العلى هو الجو وخط الاستواء هو الأرض المسكونة. وما تحت الأرض هو عالم الغيب..

وعند (المانجا) أن الإله خلق الذكر والأنثى من الطين، ثم حلت بذريتهم كارثة أبادتهم، فلم يبق منهم غير (سيتو) Seto شيث وأخته. فارتكب معها خطيئة الاقتران بالمحارم، وأعدم الموت الذي كان حيواناً مفترساً، فأصبح شيئاً لا يرى. ورزق الله (سيتو) البذور وقوة استئناس الحيوان، ثم خرق (سيتو) الوعاء الذي كان يختزن الماء فانبجست منه النهار، ثم اكتشف النار وعرف حيل الصيد، ثم صعد إلى السماء وصار نجماً (أوريون) Orion.

وعند (النوير) على أعالي النيل عقيدة أن الإنسان – قد خلق في جنوب بحيرة (نو) ويشيرون إلى تلك الجهة على وجه التحديد.

وبين قبائل (بانتو) نجد تفسيرات مختلفة لبدء الخليقة. منها أن العالم أنشأه الأب الأول الذي يشبه أن يكون إله السماء. ومنها أنه أنشأته الأم الأولى (إذا كانت القبيلة تنتسب إلى الأم) ومنها أن العالم أنشأه الزوجان الأولان من الناس، أو زوجان من الكائنات: سماء وأرض، شمس وقمر، قمر ونجوم. ومنها أن العالم أنشأه إله خالق. ويندر الاعتقاد بأن الناس ظهروا هكذا مصادفة من كهف في الأرض أو من بين أدغال الإحراج والغابات الكثيفة. بل يظهر أن بعضهم (كالبا سوتو) يظن أن العالم أزلي، ما عدا الإنسان والحيوان.

تلك هي العقائد والتصورات الشائعة ولكنه توجد في مناطق عدة نظريات سرية. فمثلاً نجد في جنوب (جابون) أن الخالق نفخ في الظلام فخلقت من زفرته امرأة بيضاء (دنتسونا) Dintsouna تحمل الشمس في يمينها والقمر في يسارها. وينطلق من ثديها الأيمن سيل من الدم، ومن ثديها الأيسر سيل من اللبن، وأن الكواكب تستمد نورها من سناء هذه المخلوقة، وأن رواسب زفرة الخالق وهي أشبه بالنطفة الحية هي التي لقحت الليل فتكونت من ذلك النجوم. وأتخذ الكون شكل زهرة، تسكن على أوراقها أجزاء العالم، ثم اقترنت الشمس بالقمر، فأنجبا إلهاً قسم الكون إلى أبعاده الثلاثة: الطول والعرض والعمق، التي يسكنها ثلاثة أفواج من الآلهة. ثم خلق الإنسان الذكر والأنثى من مزاج دم المرأة الأولى بلبنها، ثم طرد الزوجان من سرة الأرض حيث شجرة الحياة، وأصبحوا غير خالدين، ثم تكاثر النسل من التزاوج بين الآدميين، أو بينهم وبين الآلهة.

الفصل الثالث
تلقين الأسرار وعلم السحر

أسرار التلقين الأول – الغرض من هذا التلقين هو تهيئة الغلمان وللفتيات، وأعدادهم للانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة.

ويقوم هذا التلقين على تثقيف ديني وخلقي في خلوة وعزلة. ويتلقى الجنسان ذلك التلقين كل على حدة. وتجري على الجنسين في أثناء ذلك عملية الختان.

ويضم هذا الاحتفال التلقيني كل الأطفال من الخامسة إلى الخامس عشرة. ويعتبر جميع الأطفال الذين يجري تلقينهم معاً طبقة واحدة في السن. يقوم بينهم نوع من التضامن يحافظون عليه. وعند بعض العشائر في قبيلة (يوروبا) تتأخر عملية الختان حتى سن الخامسة والعشرين، لضمان النسل في حالة موت الشخص، ولكن هذه حالة استثنائية.

وهذه العشائر الأولي حد فاصل بين حياة الطفولة وبين حياة المراهقة والمغزى الديني منها

أنه نشور أو نشء جديد، إذ يعتقدون أن الطفل بعد اجتيازه هذه المرحلة قد مات ماضيه، وأنه خلق خلقاً جديداً.

وقد تختلف مراسم حفلة التلقين هذه بين قبيلة وأخري، غير أن مرماها ومعناها واحد لا يتغير. وقد وصف (فيرجيا Vergiat) إحدى هذه الاحتفالات وأخذ لها صوراً شمسية كثيرة، في قبيلة (المانجا) فقال:

إنه عند بدء فصل الجفاف يقام لهذا الغرض معسكر بظاهر القرية في غابة صغيرة على مقربة من نهر، حيث يحشد الأطفال الذين ستجري لهم عملية الختان. وهناك ينامون على أسرة من جريد، وحشيات من ورق الشجر، يشدون إليها كل ليلة، ليظلوا راقدين على ظهورهم. ويقام في وسط المعسكر محراب مقس، هو عبارة عن فرع شجرة مطوق بطوق من نحاس. وأول ما يدخل الأطفال المعسكر يفرض عليهم الصوم ثلاثة أيام، يتدربون فيها في الوقت نفسه على الرقص. ثم يغتسلون في النهر، ثم يقومون بعرض رياضي، مارين بين صفين من المراهقين الذين اجتازوا محنة التلقين فيما قبل، فيتعرضون منهم للضرب بالسياط.

ثم تبدأ عملية الختان وهم وقوف على شاطئ النهر، وترمي غرلتهم في مياه النهر، وتعصب جروحهم. وفى مساء اليوم نفسه يرغمون على الرقص دون أي اهتمام بما ينزف من دمهم. وبعد انقضاء اثني عشر يوما داخل المعسكر في مران وتدريب، يسمح لهم بالخروج للصيد. ومن تقاليد هذا الحفل طلاء الرأس والجسد بغرين أبيض اللون، على صورة وشم متنوع الأشكال. ويلبس كل طفل أزارا من ليف الشجر، ويعلق على رأسه وبدنه أوشحه وزينات تقليدية مختلفة. ويتناول منهد التعليم تدريباً على الرقص الديني، وإرشاداً إلى التعاليم الأخلاقية والعادات القبلية، ووصايا عملية في الحياة، وتنبيهاً إلى المحرمات، وتربية جنسية. ويعاقب كل من يرتكب عملا شائناً في تلك الفترة أو كان ارتكب قبلها، ومن بين العقوبات القيام بجمع عسل النحل البري، والتعرض للدغ النمل، والتسخير في أعمال الحقل تحت ضربات السياط.

وقبل أن يخرجوا من المعسكر تصبغ أجسادهم العارية بطلاء أبيض ثم تمحي أسماؤهم القديمة، ويتسمون بأسماء جديدة. ويحرم عليهم مخاطبة الناس إلا بعد ثلاثة أيام، رمزاً إلى أنهم قد ماتوا ثم بعثوا من جديد. وبعدها يحرق المعسكر بكل ما فيه من ملابس قديمة، ثم يفرج عنهم بعد هذا الامتحان العسير، ويسمح لهم بالعودة إلى أهلهم في القرية.

وأما حفل تلقين البنات فيستمر شهراً قمرياً كاملا في مكان منعزل، ويفرض عليهن قضاء ليلة في الغناء والرقص، ثم الاغتسال في النهر.

وتجري لهن عملية الختان بواسطة إحدى عجائز الحي، ويلقى ما اقتطع منهن في النهر، كما صنع للغلمان. وبعد تطيب جراحهن يرقصن في الليلة نفسها، وتطلى أجسادهن بالزيت، وتصبغ باللون الأحمر. ويتلقين كذلك تثقيفاً وتدريباً خاصاً بهن.

ورغم أن عادة الختان للجنسين منتشرة انتشاراً واسعاً بين القبائل السودانية، وخاصة سكان الغابات، فإن كثيراً من القبائل على ساحل غينيا تستنكر هذه العادة وتستهجنها، حتى أن بعضها يشترط ألا يتولى زعامتها أمير مختون؛ لأنهم يزعمون أنه يفقد قواه بهذه العملية.

بل أن بعض المناطق السودانية القديمة الواقعة بين المنطقتين السابقتين لا تعرف عادة الختان قط، وتحل محل تلك العادة في حفلة التلقين عادات أخري عندهم. فعند (النوير) توسم الجبهة بآلة حادة.

وعند قبائل (سارا) توسم الخدود وتقتلع بعض الثنايا السفلي، وتجعل. بعض الثنايا العليا مدببة الأطراف. كما تمارس بينهم عادة ختان البنات، ويفرض على الأطفال في أثناء التدريب أن يشربوا حساء تسبح فيه مواد غريبة، ويزعمون أنه حساء يحول قلوبهم إلى قلوب رجال، ثم يسمونهم بالاسم الجديد. وحفلات التلقين تقام عندهم كل ثلاث سنوات وقد تستمر شهرين.

وفى جنوب الكنغو تبدأ حفلة تثقيف البنت عند ظهور أول طمث. أما قبائل الهوتنتوت فإنها تحور عملية الختان بمط أشفار عضو التأنيث حتى يواري.

ويحظر على النساء وفى كل الأحوال، حضور احتفالات تلقين الذكور، كما يحظر على الرجال حضور احتفالات تثقيف البنات؛ لأنها احتفالات خاصة بتحديد الجنس. ويزعمون أن المرأة تصاب بالعقم إذا أصابها رشاش من دم مختون.

وأما قبائل (باسوتو) فما زالوا برغم اعتناقهم المسيحية يحتفظون بتقاليدهم الوثنية في إقامة حفلات التلقين. غير أنهم جردوها من مغزاها الديني، وسموها باسم (مدرسة المراهقة) التي يتلقى فيها الأطفال التربية الاجتماعية والجنسية، ويتلقون السنن المتوارثة عند القبيلة.

الجمعيات الدينية:

(أولا): في السودان الغربي – تنتشر هذه الجمعيات، التي تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية والاقتصادية التقليدية للقبائل، وكلها ذات أساس ديني. وكثير منها مهمتها الأولي هي الاحتفال بعبادة معبود. ويحتفل عند الانتساب إليها احتفالا يذكر باحتفال التلقين.

ويختص الأعضاء ذوو المراتب الدينية الرفيعة فيها بمعرفة سر نظام الكون والرموز المقدسة معرفة تامة.

وتتكون جمعية (كومو Komo) في قبائل البامبارا من جميع المراهقين المختونين في القرية. ورئيس هذه الجمعية حداد يتولى حراسة المعبد وإدارة شئون التراث القبلي ومعبدها الكبير، في كوخ يضم محاريب كثيرة فواحد للأنفس، وآخر للنياما، وثالث لإله الذرة.

وشعار الجماعة (قناع كومو) وهو فظيع المنظر يدخل الرعب في القلوب. عبارة عن رداء أسود اللون، له ذراعان ينتهيان بمخالب مسمومة؛ ويقبل في عضويتها في وقت واحد كل من ختنوا في دفعة واحدة. ويقام لذلك احتفال ديني في الليل. وفى أثنائه تشرح لهم الأدوات والآثار التي خلفا السلف، ثم يلقنون مغزى القناع ونظام التشكيلات القبلية، وتؤخذ عليهم الإيمان والمواثيق بألا يبوحوا بشيء من الأسرار التي لقنوها. وينتهي الحفل بالتآخي فتذبح عنز يشرب الجميع دمها رمزاً للوحدة الروحية التي انتظمت هم. وكلما تقدمت بهؤلاء السن وازدادوا تعمقاً في الأسرار الخفية العليا. ويجلس الأعضاء في هذا الاحتفال حول الرئيس، كل طبقة حسب درجتها قرباً أو بعداً منه.

وتدور في هذه الجلسات مناقشات ومساجلات حول مشاكل القرية والجماعة؛ ثم تتلوها حلبة الرقص بالقناع في جلبة وضجيج. فإذا حنث أحدهم بيمينه وباح بأسرار الجمعية جرح بمخلب القناع وقضي نحبه.

وأهم أعمال هذه الجمعية (كومو) هو تنظيم الحياة في القرية، ولاسيما المراسم الزراعية المقدسة، واتخاذ القرارات السياسية، وتنظيم العمل، وإقامة العدل. ومجلس الكومو هو حارس التقاليد الاجتماعية، والأساطير القبلية. ويعتبر هو العمود الفقري في مجتمع البامبارا. ولا تقبل النساء في عضوية هذه الجمعية.

وفى قبائل (مندي Mendé) توجد جمعية (بورو Poro) تشبه جمعية (كومو) في البامبارا. ويشترك فيها الذكور فقط. ولا يلتحق بها عضو إلا بعد دفع اشتراك للعضوية. وتفرض على طالب العضوية الإقامة منفرداً في الغاب بضعة أسابيع، وتحمل وخزات ووسمات في الصدر والظهر والعنق. ويزعمون أن هذه من آثار عض الجن وفى تلك العزلة يلقن المبتدئ تقاليد القبيلة والأناشيد، وأساليب الرقص الديني وقواعد عملية خاصة، وآداب السلوك والأخلاق (كضبط النفس، والتعاون، والخضوع للآباء). كما يلقن كيفية الاتصال بعالم الجن والعوالم الخفية. وتلعب هذه الجمعية دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية والسياسية القبلية. وأما النسوة فلهن جمعية منفصلة قائمة بذاتها على نظام البورو.

ونجد جمعية (ديوروDyoro) عند قبائل (لوبي). وللجمعية كاهنها الكبير، ودونه كهنة آخرون. وهذه الجمعية هي المنظمة الوحيدة التي تجمع شتات الشعب الفوضوي. وهي تنظم احتفالا دينياً كل سبعة أعوام لتجديد المواثيق بينهم وبين الأرض. فتختار من بين الأبكار عروساً تزف إلى أحد أبناء الأسر العريقة المؤسسة للقبيلة. فإذا أنجبت طفلا أشاروا لذلك بقولهم:" لقد أنجب النهر". ثم تلي ذلك فترة الإباحية والفوضى، تبدأ بقيام بعض الكبار بقتل شيء من الدجاج والماعز ضرباً بالعصى. وتدق الطبول حينئذ إيذاناً ببدء حفلات العيد. وعندها يتحدد أشخاص الفتيان والفتيات الذين يقع عليهم الاختيار لتلقي الأسرار. ثم يتجه الجميع إلى مكان معين، حيث يفترشون الأرض ويشربون الماء المخلوط بالطين، ثم يغسلون ويطهرون بماء النهر المقدس، ثم تطلي أجسامهم بغرين من قاع النهر، ويخيفونهم بما يسمي (الغول) إذ يقال لهم أنه سيهاجمهم فيمزق أجسادهم في الظلام. ولذلك يطلقون في الليل أصواتاً منكرة مفزعة، يقال لهم إنها صوت الغول. ثم تحلق رءوسهم وتبدل أسماؤهم بأخرى،

ويلقنون الرقص واللغة السرية، ثم تنشأ علاقات بين الفتيان والفتيات، فإذا عادوا إلى القرية تجاهلوا الحياة الواقعية، وأتوا بحركات وأعمال مصطنعة تدل على البلة. فمثلا يضعون الطعام في آذانهم لا في أفواههم ويوقدون النار على التراب في القدور بدلا من الطعام، ولا يلقون إلا بألفاظ ساذجة.

وهكذا يصبح تعليمهم الحياة من جديد ضرورة لا مفر منها فيبصرون بالمراد من قصة الغول، ويطلبون إليهم كتمان هذا السر، وتكون هذه المراسم نهاية مرحلة الطفولة، وبدء مرحلة المراهقة.

وأما على ساحل غينيا فإن هذه الجمعيات لا تقبل في صفوفها جميع أفراد القبيلة، وإنما هي عبارة عن أندية خاصة، لا يلتحق بها إلا من يصلح من أفرادها. لا يلتحق بها إلا من يصلح من أفرادها. ونفوذ هذه الأندية السياسية والاجتماعي على جانب عظيم من الخطورة. وهي أشبه بجمعيات سرية فمنها جمعية (أورو Oro) بين قبائل يوروبا. وهي تمثل أرواح الآباء والأجداد، وتعبر عن إرادتهم فيحكم أعضاؤها بالإعدام على كل من انتهك عادات القبيلة ومقدساتها، ويخرجون في الليل لينفذوا هذه الأحكام سراً. وعلى النساء أن يبقين في بيوتهن إذ ذاك، حتى لا يرين هذه المشاهد.

وكذلك عند (الايبو) جمعية (أمو Mmo) السرية، تزعم أنها هي لسان الأرض ووكيلة الآباء والأجداد في العمل على صيانة العرف الموروث، وضمانة احترام العادات المقدسة. ومن سلطة أعضاء هذه الجمعية أن يطردوا المرأة الزانية من بيت الزوجية، وأن يعذبوا المتهمين بالسحر – وهم يقومون بهذه الأعمال وهم محجبون بالقناع. ويدخل في سلطانهم كذلك مراعاة القيام بمراسم الجنائز. وفى (بورو توفو) نجد عصابة سرية تعرف باسم (قناصة الليل) ويخرجون في هيئة أشباح مقنعين أو واضعين على نواصيهم قروناً، ويرتدون ثياباً كاسية فضفاضة من الحشائش، ويطلقون من أنوفهم أصواتاً مزعجة في الظلام، وتجتمع هذه العصابة في إحدى الغابات المقدسة. والذين يريدون الانتساب إلى الجمعية يختبرون بألوان التعذيب والضرب بالسياط، دلالة على صلاحيتهم ويدفع العضو منهم اشتراكا عن عضويته.

وفى (داهومي) و(توجو) توجد جمعية (ميثاق الدم) أسسها المدعو (هازوماHazoumé). ومن نظام الاحتفال فيها تكديس بعض الأدوات والمخاليط، وتخطيط مجموعة معقدة من النقوش الرمزية المختلفة على الأرض، ويجلس الأعضاء الجدد حولها، حيث يحضر شراب يوضع في جمجمة بشرية، به خليط عجيب من تراب ورماد وحجر الصواعق وحديد البنادق. ثم يؤخذ دم فصادة من كل أحد من مقدم ساعده، يلتقط هذا الدم السائل على قشرة ليمون، ويصب في الجمجمة التي تدار عليهم ليشربوا منها. فإذا تم ذلك أصبح كل الحضور أخوة في الدم، ووجب عليهم أن يتآخوا ويتعاونوا في السراء والضراء، ويحمي بعضهم بعضاً. ويعتقدون أن كل من يخالف هذا الميثاق يصاب بالجنون المطبق، أو تنزل به أشنع الكوارث، أو تولد له ذرية شاذة الخلقة، وأنه عرضة للدغة حية سامة يموت منها وهو يعوي من شدة الألم.

وكانت تنتشر في الماضي بتلك الأرجاء عصابة سرية، عرفت باسم وعصابة الفهود الكاسرة" نشرت الذعر والإرهاب بين السكان، بل أنه توجد حتى اليوم في شرق ليبيريا وغرب ساحل العاج جمعيات من أكلة لحوم البشر؛ ولكن أعضاءها يتسترون تستراً تاماً حتى لا يكشف أمرهم. وأدي هذا التستر الشديد إلى خفاء أمرهم على علماء الأجناس البشرية. وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى وجود عصابة رهيبة لأكل لحوم الموتى. ولا تزال هذه العادة الوحشية تمارس في مناطق المستنقعات لنهر كازامانس وغينيا البرتغالية.

(ثانياً) الجمعيات الدينية في أفريقيا الاستوائية:

تعتبر الكاميرون، وخاصة الجزء الغربي منها، عشاً للجمعيات السرية. وبلغ من رهبتها أن أحداً لا يجرؤ على التحدث عنها أو حضور جلساتها دون إذن خاص. ومن يخالف ذلك فجزاؤه الموت المحقق. وتملك كل جمعية منها قطعة أرض خاصة، في وسطها دار لاجتماعاتها. ولكل منها أقنعتها الخاصة بها ولباسها ورقصاتها ولغتها السرية الاصطلاحية. وأكثر هذه الجمعيات يتقاضى أجور عينية عالية من الشخص الذي يرغب في الالتحاق بعضويتها. ويفرض بعضها ضريبة على بقية السكان. وكل من يتقدم بطلب عضويتها يتحتم عليه اعتبار قناع الجمعية روحاً مقدساً. فإذا قبل في صفوفها فعليه أن يتآخي مع بقية الأعضاء ويشرب معهم ما يسمي (شراب العهد). ويصبح بذلك مقيداً بمواثيق الجمعية، ولا يستطيع منها خلاصاً. وتزعم كل جمعية سرية أنها تعلم ما ظهر وما بطن، ولها الحق أن تعقد جلساتها في هيئة محكمة، فترغم المدين على دفع دينه وتعاقب السارق والزاني والسحرة المشعوذين، وتحمي الممتلكات. ولا يقبل في هذه الجمعيات نساء ولا أطفال.

وفى مناطق أخري جمعيات مشابهة للجمعية السرية في الكاميرون، ونذكر من بينها جمعية (انجوNgouá) السرية عند قبائل (ماننجوبا) ويستلزم الدخول في الدخول في أسرارها ثلاث درجات من التلقين، ومن شأن هذه الجمعية أنه إذا وضع أعضاؤها تمثالا صغيراً أمام بيت أحد من الناس كان علامة على أن صاحبه ارتكب ذنباً. ويفرضون عليه أن يقدم إليهم فدية من المواد الغذائية ونبيذ النخل. وقبائل (باندجون) تزعم أن أعضاء جمعية الأفعى يستطيعون التحول إلى أفعي تلدغ الناس. وجمعيات (الرجل الفهد) في قبائل (باكوكو) و(البولو) جمعيات خطرة للغاية؛ إذ يخرج الأعضاء تحت جنح الظلام في لباس من جلد الحيوان ويسيرون على أربع وفى أيديهم خطافات من الحديد يمزقون بها أجساد فرائسهم وينتزعون منها القلب ليتزودوا بقوة إلى قوتهم. ولكن هذه الفظائع قد امتنعت اليوم أو كادت. ورغم أن هذه الجمعيات ما تزال باقية محتفظة بطابعها الديني واجتماعاتها السرية ومواكبها القنعة، وقد اقتصر دورها اليوم على المسائل السياسية والاقتصادية والنقابية (وهو ما يشاهد عند قبائل باميليكه على كثرة الجمعيات عندهم).

وعند قبائل (سارا) نجد جمعية هيوندو Hyondo تضم جميع رجال القبيلة وتلقنهم معارف السحر (وخاصة السموم). وهي أساليب يخضعون بواسطتها الأطفال والنساء لإدارتهم. وتستغرق مراسم التلقين في مدارس الأدغال عندهم عدة سنوات. وتشمل تعليم الرقص محاكاة للحيوان، وتلقين لغة سرية والضرب بالسياط وأحداث خدوش وجروح في جسم الطالب.

وعند (المانجا) و (الباندا) في منطقة أوبانجي تشتهر جمعية (أنجا كولا) Ngakola ومؤسسها شخص يسمي (أنجا كولا) اشتهر بأنه طاغية عظيم القوة ذو بشرة شديدة السواد، مغطاة بشعر كثيف، وكان يقيم في وسط الأحراش كما عرف عنه أنه يأكل الناس وقد يلفظهم أحياء. وقد تخلصوا منه بالسم، إلا أنهم يقدسون قوته. وكان من شأنه أن يعاقب كل من يخونه بالموت. وإذا غضب على الناس رماهم بالمرض انتقاماً منهم. فإذا حدث كان من الضروري أن تعاد مراسم التلقين في مكان منعزل بجانب نهر وهناك يسمع صوت (أنجا كولا). يحدثونه بنقر طبل(tam-tam)

بقضيب من الخيزران. حيث يقوم معلم التلقين بدور (أنجا كولا). ويفرض عليه طول مدة التلقين التي قد تستمر سنتين التمسك بالطهر والعفة وألا يغتسل أبداً. وأما المتلقنون فيلبسون تاجاً من ريش طائر على رؤوسهم، ويربطون أجراساً صغيرة حول ركبهم. ويفرض عليهم أن يعترفوا بذنوبهم. ومن ثم يبدأ بشعائر توهم بأنهم فارقوا الحياة فيلقي على أجسادهم الرماد، كما تستخدم أجسادهم مقاعد للجلوس، ويضربون بعصي من خشب مقدس، وتدلك عيونهم بزيت نباتي، ثم تنتهي تلك المراسيم بإلقائهم في ماء النهر. ومغزى كل ذلك أن (أنجا كولا) Ngakola قد التهمهم ثم لفظهم وأعادهم إلى الحياة من جديد. ثم تلي ذلك تدريبات واختبارات تنتهي بعودتهم إلى قراهم، فيدخلونها في هيئة راقصة وقد جعدت وجوههم بتجاعيد صناعية. والتلقين عندهم على عدة درجات.

ويقرر (بيرندا Birinda) أن جمعية Bouity (بويتي) في جنوب جابون تمارس شعائر التلقين على أربعة مراحل. وتشمل حفلاتها الرقص والأناشيد، وتناول نوع خاص من النبات يحدث غيبوبة لمن يتناوله. وله تأثير خاص أنه يطلق العناصر التسعة المكونة لكل شخص والتي تقابل عدد الطبقات المؤلفة للكون في علمهم.

ولا يستطيع الشخص إطلاق العناصر العليا إلا أن يكون من كبار المطلعين على الأسرار، إذ بانطلاق العنصر السابع تظهر له الآلهة الخالقة (دنستونا) وهذه الرؤية موصوفة وصفا دقيقا في لغة سرية خاصة. ومراتب معرفة الأسرار مدرجة عددياً حسب العناصر التي تظهر له.

وبعد انتهاء الحفل تبدأ مرحلة التلقين، التي تستغرق عاماً كاملا. فإذا عاد المتلقن إلى الحياة العادية، ظل تحت وصاية معلمة فترة ما إلى أن يصبح هو نفسه معلما. وعندهم أن كل كائن حي مركب على غرار تركيب الكون. ولذلك ينبغي أن يعرف كل إنسان نفسه ويسهر على العناية بزيادة قواه الحيوية. وعندما يقضي المتلقن نحبه تنطلق من جسده عناصره التسع، فينضم كل عنصر منها إلى مكانه في الأجزاء التسعة التي يتركب منها الكون. وأما الذين لم يتلفوا أسرار التلقين فتظل أجسادهم في الثري غير متميزة العناصر. وجمعية (البوبتي) قاصرة على الرجال فقط. وللنساء جمعية مشابهة لها خاصة بهن. وإلى جانب هذه المدارس السرية الدينية تجد في تلك المنطقة جمعية سياسية نضم طبقة الحكام، ويقوم سلطانها على العلم بالسحر وأساليبه.

(ب) الكهانة والسحر

من الطبيعي. في بيئة تتحكم فيها وتحركها (قوى حيوية) ظاهرة وخافية، أن يكون غاية ما يتمناه الإنسان فيها أن يضمن لنفسه ولعشيرته الاحتفاظ بهذه القوي والاستزادة منها. وقد كفل الدين كل ذلك للجماعة. وإلى جانب الدين نشأ السحر، ليستعين به الأفراد على اكتساب تلك القوى، أو على صد قوي شريرة غير قدسية تهددهم في أمنهم. وقد ميزوا بين نوعين من السحر: السحر الأبيض أو الحلال والسحر الأسود أو الخبيث. واختص بالأول جماعة معترف بها، احترفوا تلك الصناعة، ويلقب الواحد منهم (الكاهن الطبيب) ومهمته الاتصال بالقوي الخفية لاستنباط الجواب منها عن سؤال معين كالسؤال عن نوع مرض أصيب به شخص، أو عن مدي نجاح السائل إذ أقدم على الاشتغال بعمل ما. فيشتغل الساحر بأساليبه الخاصة لمعرفة الجواب، ثم يجيب السائل على سؤاله حسب ما هداه إليه سحره.

وقد يضيف إلى ذلك وصف دواء ما وطريقة استعماله. ونري أن هذا الكاهن الطبيب يلعب في القبيلة الدور الذي يقوم به في عالمنا المتحضر العرافون والأطباء والصيادلة. وهو لا يقتصر على وصف الداء والدواء، بل يتعدى ذلك إلى ما يشغل بال الإنسان في حياته. وهو يبيع الناس التعاويذ والتمائم لمختلف الأغراض للشفاء من المرض، ولاستنزال المطر، ولاجتلاب الحب، ولاستعادة القوة، وكذلك للنجاح في الامتحانات والانتخابات....

وقد تكون صنعة العرافة متوارثة من الوالد إلى الولد. وقد تظهر على شخص ما أعراض من الصرع مثلا، تدل على أنه الاله قد اختاره لعبر عن إرادته. والعرافون أو الكهان عند (الماندانج) يحملون خرجاً من جلد الماعز، يحتوي خليطاً من أدوات العرافة: جذور نبات، وخيوط، ووعاء من طين يابس به ماء، وتمثالان لرجل وامرأة، ونصلان مقوسان، وأربعة أجراس أسطوانية، وصرة من الودع، وقرنان مزركشان. فإذا فرغ الساحر من همهمته وتلاوة العزائم أفرغ خرجه على الأرض،

ثم نثر الودع على الجلد، وأخذ يستنبط الجواب من الشكل الذي اتخذته هذه الخرزات على سطح الجلد وبعض السودانيين يستعملون أوات أخري، مثل العصي والحصى وقطعا من الحديد. وفى جنوب منطقة الفلتا وأعالي ساحل العاج يستعملون شرائط من الجلد، أوساطاً صغيرة، أو ماء في يقطينة يضيفون إليه بعض الأصباغ. ويستشفون الجواب من الشكل الذي تتخذه الرواسب في الماء من انعكاس ألوانها فيه. وقد جلب المسلمون معهم نوعاً جديداً من التنبؤ الحسابي، يعرف بحساب الجمل الكبير، وحساب الجمل الصغير، وضرب الرمل.

وفى موطن قبائل (لوبي). يعرف العراف المتطبب بين الناس بما يصيبه من صرع، أو ما يأتيه من أعمال جنونية، كالتهام القمامة أو التفوه بكلام غير مفهوم. والاستخارة عندهم بوساطة أوضاع الخرز، أو اهتزازات حصير معلق، أو بترقيص تماثيل صغيرة معلقة بخيوط، أو بالاستماع إلى متكلم يتكلم من بطنه بفرض أن صوته يعبر عن كلام الإله. وتوجد جمعية لهؤلاء العرافين تلقن أعضاءها تعاليم خاصة، وتعلمهم لغة سرية. هؤلاء يبيعون للناس تعاويذ وتمائم من مواد منوعة، كالخشب أو القرن، أو أغصان الشجر، أو عقود من الخزر، أو قطعة من حديد. مطرق أو نحاس، أو فاكهة الخ... وكل واحد من قبائل (لوبي) يحمل ملا يقل عن ثلاث تعاويذ.

ولدي جيرانهم من القبائل القاطنة في شمال ساحل الذهب يقيم كل ساحر محراباً منزلياً يستشف منه الغيب من حركة عصا سحرية مثبته في المحراب.

وعلى ساحل غينيا نجد الكهانة وبيع التمائم فاشية بين السكان. والعرافون بين قبائل (اشانتي) يستعملون وسائل أخري في الكشف عن الغيب؛ كسوط ذي سبع شرائح، وقدر وأمعاء دجاجة، ومرآة سحرية وخرزات تطرق على أحد القبور. وقد يستعملون وسيطا للأرواح يتكهن بالغيب أمام أحد القبور.

وأكثر التعاويذ انتشاراً بين سكان الساحل المكانس الصغيرة من ليف الشجرة، والقرون، والمساحيق المنوعة، وأنياب الأسد، وأنياب الأفعى، للوقاية من سمها، وقصبة بندقية للوقاية من الرصاص، وصفارة للوقاية من مؤامرات الأعداء؛ بيننا نجد تعاويذ أخري لحماية الجماعة باسها، كثمرة اليقطين وخيوط القطن، وبعض التماثيل الصغيرة. وللزرع كذلك تعويذة لصيانته سدادات من القش محشوة عظاما. وهناك غير ذلك أكسير للحب، وتمائم تجعل صاحبها يري الناس ولا يرونه.

وبين قبائل (فون وايفهوبوروبا) ينتشر نوع من السحر يتكهن أصحابه بواسطة ضرب الرمل، وهو من تعاليم إله المستقبل المسمى عندهم (فا) Fa وهو الكاشف عن أسرار الوجود والمعبر عن إرادة الإله الأعظم. ويعرف كهنة (فا) هذا باسم (بوكونون) Bokonon وهؤلاء يحيون حياة مثالية فاضلة، لا أثم فيها ولا كذب. لا أثم فيها ولا كذب. ولكل منهم رواده على قدر صيته وصدق تنبؤاته، وإن كان يشاع عن بعضهم أنهم امتهنوا السحر الخبيث إلى جانب مهنة العرافة وعلاج الأمراض. ومن فضلاء هؤلاء الكهنة المطببين الذين طارت شهرتهم في تلك الآفاق، الشيخ الوقور (جدجبه Gédégbe) وكان رئيس الكهان في بلاط الملك (بهانزان) فقد شهد (موبوال) Maupoil لذلك الشيخ برجاحة العقل والورع والتقى، حيث استشارة الملك يوما عندما أراد إعلان الحرب على الفرنسيين، فتنبأ له بالهزيمة والتشرد، وصارحه بذلك. وأعجب من هذا أن تنبأ (جدجبه) هذا لنفسه باليوم والساعة التي توفي فيها. و(موبوال) المذكور فرنسي درس أساليب السحر الأبيض والعرافة في داهومي.

والعراف (البكونون) غير متجول، بل يشتغل بصناعته في مسكنه حيث يقيم محرابا يتألف من جرة منكفئا على فهما، تحيطها أجراس صغار. فإذا بدأ الاستخارة رمي بثمرة جوز أو ثمرة الكولا على لوح مبسوط فترتفع وترتد، وله في ارتفاعها ووقوعها حساب ورموز يستخلص من مجموعها الجواب الشافي. وهو حساب غاية في التعقيد ففيه (**16**) علامة كبيرة و(**240**) علامة صغيرة ويتقضى أن يمر (البوكونون) بثلاث مراحل تلقينيه حتى يصير عرافا.

وفى غرب الكمرون تستعمل (السلة المسحورة)، وتوضع في قلبها أصداف من أنواع وأشكال مختلفة، وقطع من صخر شفاف ولحاء شجر وقواقع، وعظام، وبراثن (أبو جلمبوا)، ولآلئ، وجلاجل الخ .... فيأخذ العراف السلة ويهزها حتى يختلط ما فيها، ثم يطرح محتوياتها على الأرض. ومن ثم يتمعن في أوضاعها. ومن أوضاعها ينطق بالجواب.

وفى بلاد (أوبانجي) يتجول هؤلاء المتطيبون المتكهنون ويطوفون بالبلاد في زي من جلد حيوان، وحول رقابهم حبال بها عقد وتمائم، يرقصون على أصوات أجراس وجلاجل مشدودة إلى أرجلهم. وكل من أراد أن يحترف التطبيب في هذه المنطقة لابد له أن يجتاز امتحاناً عسيراً، إذ يبطح أرضا في حفرة، وقد شد ذرعاه إلى أوتاد، ثم يغطي جسمه بلحاء الشجر والحطب، ثم تشعل النار في هذا الهشيم، ولا يستنقذ من هذا الأخدود الأبعد أن يصاب جسده بحروق جسمية. ويزعم المتكهن منهم أنه يعرف الغيب بعلامات يستشفها من سبخ أنابيب القصب على الماء ومن حركة اشتعال النار التي يرقصون حولها ويحصل الشفاء بأن يمتص الطبيب الداء من جسم المريض بقصد العضو المريض فإذا أمتص منه الدم أخذ يتفله في هيئة قطع من العظام، علامة على تمام الشفاء. وهذه الطريقة منتشرة في أنحاء أفريقيا السوداء.

وتستعمل (اليقطينة المسحورة) في الاستخارة عند قبائل أعالي النيل وشرقي أفريقية فيوضع فيها بذور، ثم تهز بحركة شديدة، ويعتبر الصوت الصادر عنها صوتاً صادرا من الآلة.

ورسامة طالب الطب والكهانة عند قبائل الأقزام تكون بامتحان عسير رهيب، إذ يربط الطالب إلى جثة ميت، وجهاً لوجه، ثم يدلي الاثنان في قبر ويتركان فيه ثلاثة أيام. فإذا لم يصب الطالب في نهايتها بالجنون دل هذا على قوة سلطانه على أعصابه وضبطه لنفسه، وعلى أن الأرواح العليا قد حلت فيه.

وينفرد الساحر المتطبب عند قبائل (البوشيمان) بقدرة خفية هائلة، إذ يزعم أنه يستطيع أن يستدرج الصيد من مكانه، وأن يتحول إلى حيوان، أو يصعد إلى السماء بتسلق حبل يقذف به إلى أعلى ليستنزل المطر وعند (الدامارا) سحرة وهبوا القدرة على استنزال المطر برقصات خاصة يرقصونها ويستطيع بعضهم أن يتنبأ بالغيب عندما ينصت إلى صفق نعليه.

والاستخارة بطرق فقرات من عظام معروفة في الجنوب الشرقي لأفريقية. وتوجد بين قبائل (باسوتو) و(سوازي) طبقة من النساء متخصصات في مداواة داء الصرع، يداوين المصاب بإرغامه على الرقص دون استراحة، حتى تنتهك قواه، ثم يلقي به في النهر فتفر من جسده الأرواح الشريرة التي سببت المرض.

أنواع أخري من الكهانة والسحر:

لا تقتصر صناعة السحر على الكهان المحترفين، بل توجد أساليب أخري من السحر والكهانة يزاولها الأفراد غير المحترفين، إذا كانت تكمن فيهم قوي خفية تكشف لهم عن الغيب.

ومن ذلك ما يفشو لدي قبائل (بامبارا) من التكهن بالإعداد الاثنين والعشرين التي تقابل عدد العناصر المكونة للخليقة. فالعدد (1) يقابل الإله وعدد (2) للتوائم و (3) للرجل و (4) للمرأة و (7) للكون بتمامه .... الخ، وكل أحد من قبائل (البامبارا) يستطيع أن يستخير الأعداد التي يصل إليها عن طرق متعددة، كأن يقيس طول ظله وقت الزوال يختصره، أو باستعمال ثمرة الكولا أو بطرق الودع أو بضرب الرمل ....

وعلى العموم يوجد نوعان من الكهانة كما يقول (مونتي Monteil) كهانة إلهامية، وهي تكهن المتصلين بالأرواح، وكهانة حسابية وهي صناعة الكهان المحترفين.

وإلى النوع الأول تنتسب جمعيات في قبائل (خاسوكة) Khassouké حيث يتقمص إله الماء جسم الكاهن، فيتكلم هذا بلسانه. وقبائل (كونياجي) يسألون الميت عن سبب موته؛ إذ يحمله شبان القبيلة على رؤوسهم فيصيبهم بالصرع والاضطراب بشكل يؤدي إلى اكتناء الجواب من حركاتهم.

والأحلام والرؤى في قبيلة (الكردي) نوع من التكهن بالمستقبل. فإذا رأت امرأة في حلمها ضفدعة طويلة الأرجل دل ذلك على أنها ستلد ذكراً، فإذا رأت نوعاً آخر من الضفادع دل ذلك على أنها ستلد أنثي وتتطير هذه القبيلة من البومة، فهي فأل شؤم، بينا ترى في الغزالة فألا حسنا. ومن رأي في النوم ثعباناً (وهو يذكر بالحبل) تنبأ بأنه سوف يقتنص ويصير عبداً رقيقاً.

والتكهن في السودان بالاستقراء (لحساب) والاستنتاج شائع مختلف الأشكال. ومن أكثرها انتشارا طريقة استقراء أمعاء الدجاج. وذلك بذبح الدجاجة على المحراب، ثم تطرح على الأرض. فإذا نفقت وبطنها إلى أعلى كان الجواب خيرا. وأوضاع بقية الجسم تدل على تفاصيل إضافية.

كما يتكهنون في تلك الجهات أيضاً باستقراء حركات الفأرة بوضعها في قاع إناء أسطواني الشكل، في أعلاه سطح مثقوب توضع عليه حبوب مخلوطة بأشياء أخري، فإذا تحركت الفأرة من أسفل إلى أعلي لتأكل الحب عبثت بالأشياء الأخرى وغيرت من مواضعها. وباستقراء هذه الأوضاع يستطاع التكهن بالجواب عن المسألة المطلوبة.

وفى الكاميرون يستخيرون (العنكبوت المتنبئ) وهو نوع من العنكبوت ويزعمون أنه أول الخلائق الحية. فإذا عثر أحد الناس على حجر هذا العنكبوت نظف حول بابه، ثم ثوره بحجارة جافة، ثم يهمر للعنكبوت بكل مشاكله وهمومه، ويسأله الجواب عن سؤاله. ثم يضع حول الباب أوراقا من الشجر، أو قطعاً من اليقطين، ينظمها على رسم معين. فإذا انصرف الرجل خرج العنكبوت من جحره، وأخذ يعبث في سيره تلك الأوراق والأشياء، ثم يعود الرجل أدراجه ويستقرئ أوضاعها التي تدله على المستقبل. بل تزيد على ذلك فتدله على الطريق السوي الذي يجب عليه أن يسلكها في حل مشاكلها.

ويتصل بأعمال السحر طائفة من المعتقدات والمخاوف النفسية، التي تعرف لدينا باسم الخرافات. فمثلا نجد قبائل (الباسا) تمتنع عن العمل في فصل المطر، ونجد لديهم أيام نعمي وأيام بؤس. فإذا رأوا فأر النخيل في فناء الدار كان ذلك نذيرا بنزول الموت بأهلها وإذا آذي إنسان هرة أصيب بالحدب.

وقد تكمن في الأشياء أو الأفعال قوة سحرية تفعل فعلها. فمثلا نجد في أشانتي ما يسمي (سومان Souman) وهو شيء من النبات يزعمون أنه تسكنه روح، يباع في السوق، وبعضه يتعوذ به من أخطار الحرب. بعض أنواعه لم كهنوت وأتباع. وبذلك يستطيع الإنسان أن يحصل على مراده ببضعة قروش. وهذه العبادة النفعية، عبادة (سومان)، حلت محل عبادة بعض الآلهة الصغرى.

وتعتقد قبائل النيل الأعلى أن اللعنة إذا أصابت إنساناً قتلته، وخاصة لعنة الوالدين. وبلغ من اعتقاد قبائل (كيكويو) في قدسية القسم واليمين وقوته السحرية أن كل من يخنث في يمينه يترقب أن يصيبه الموت المفاجئ— وقد استغل تلك القداسة جماعة (الماوماو) في ثورتهم ضد المستعمرين في تلك الإرجاء وتعتقد كثير من القبائل مثل (الأوبانجي) بهذه القوة السحرية الكامنة في الدعوات والأقوال، والتي تمسي أشد وقعاً وتأثيراً في الليل أو في السحر، عندما يكون الناس رقوداً لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم ولا مقاومة. كما يعتقدون، بتأثير النفث في العقد أو التفل على عضو من الجسم لإيصال الخير أو الشر للشفاء من المرض، أو الابتلاء به، أو لمنح قوة الإخصاب، أو لحرمان الرجل من قوته الجنسية. ويستعمل البوشيمان قوساً صغيرة وسهما مسمومة لوقاية أنفسهم من مكايد السحر التي يوجهها إليهم أعداؤهم.

والسحر الذي يستسقي به المطر من أعظم ما تهتم له القبائل الزراعية. وغالباً ما يكون هذا السحر تضرعاً دينياً يتوجهون به إلى الأسلاف والآلهة غير أنه، لكي ينصاع الآلهة فتستجيب الدعاء، يلجئون إلى وسائل عدة: فعند (قبائل لوندا) مثلا يبللون الفؤوس قبل بدء العمل على الأرض، أو يبللون التربة بطين رطب ذي لون أحمر وأبيض، أو أقامه تمثال لرجل وامرأة معاً. وعند قبائل (سوازي) يختص الملك وحده بالقدرة على استنزال الغيث. ويزعمون أنه يملك حجراً خاصاً للنظر يحتفظ به ويستره عن الناس. وأنه يستعمل لذلك أيضا ماء استقته عذرا وان طاهرتان .... وما يزال هذا الاعتقاد سائداً بين رؤساء بعض القبائل حتى الذين اعتنقوا المسيحية. وهذه القدرة على إنزال المطر هي المبرر الوحيد لسلطان الملكية وتقدسيها بين القبائل.

السحرة:

نطلق اسم السحرة هنا على أولئك الذين يعملون على إيذاء الناس بسحرهم، وإن كان يطلق على المتنبئين والكهان. والاعتقاد بقدرة السحرة على إيصال الأذى شائع في كثير من البلاد. ويعتقد الناس أنهم السبب الرئيسي في انتشار المرض والموت، وأنهم أعداء الشعب الذين يجب الكشف عنهم ولنزال العقاب بهم إذا ثبت عليهم الاشتغال بهذا النوع من السحر الخبيث. ولا يثبت ذلك إلا بامتحانهم بألوان من التعذيب كما كان يفعل بهم في القرون الوسطي بأوروبا.

وليس من الضروري أن يعرف الساحر عن نفسه أنه ساحر؛ فقد يجوز أن طفلا دميم الخلقة أو مريضاً أو توأمين يري فيهم الناس روحاً خبيثة يحل بسببها ذبحهم. ومن الرب أن الأشخاص الذين يبين هذا الاختبار المزعوم أنهم سحرة يرضون بهذه الوصمة. فقوة السحر المؤذي قد تكون قوة لاشعورية، تحل في الشخص دون أن يكون له إدارة في ذلك؛ كحسد العين مثلا. ولكن الغالب في هؤلاء السحرة الخبثاء أنهم يوصلون الأذى للناس عن عمد. ولهم في ذلك وسائل تختلف باختلاف القبائل ومواطنها. فمثلا:

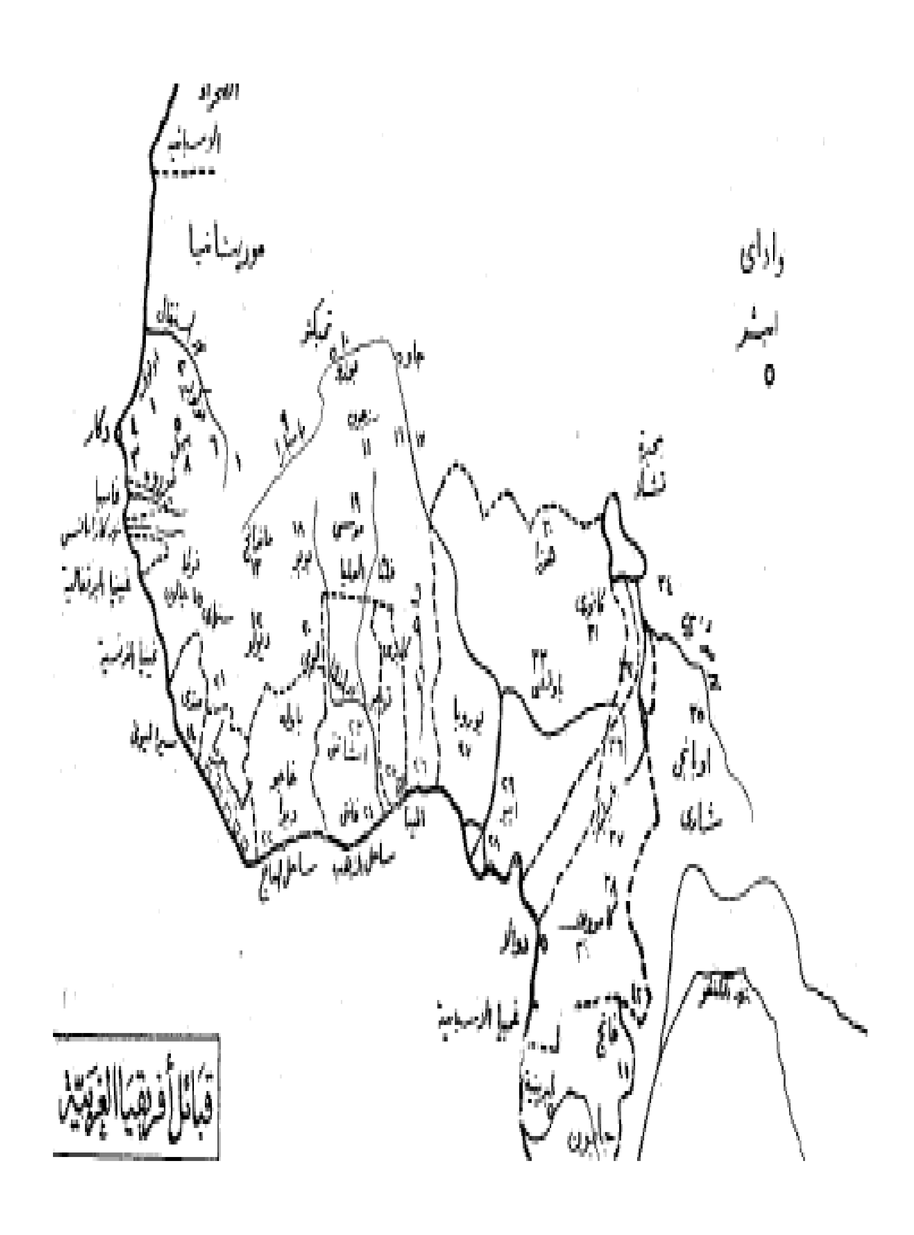
تعتقد قبائل (لوبي) أن الساحر يستطيع أن يرسل وهو في سباته توءمه الروحي ليأكل توءم شخص آخر. ويتجمع هؤلاء السحرة في شبه نقابات ليتصدوا توائم أعدائهم وينزعوا منهم أكبادهم (معنوياً) ويأكلون بعد شوائها، فيبقى هؤلاء على قيد الحياة، ولكن مرضي. كما يستطيع الساحر أن يطير في السماء على أجنحة الخفافيش، وأن يغوص في باطن الأرض، أو يتحول إلى حجر أو إلى حيوان متوحش كالضبع مثلا. كما يستطيع أن يوجه الحظوظ المنكودة إلى الناس، وخاصة عند مرور جنازة ميت. ولا يمكن إبطال سحره إلا إذا امتص المتطبب عمل الساحر من جسم الشخص المسحور. وفى الغالب يخرج من الجسم على هيئة قطع من العظام أو رءوس سهام أو أشواك قنفذ.

وتعتقد قبائل اشانتي أن الساحرات الخبيثات لا يؤثر سحرهن إلا في عشيرتهن؛ وكثيراً ما توجه تهمة السحر الأسود إلى الخالة في الأسرة. وتستطيع الساحرات امتصاص دم ضحاياهن بطريقة خفية؛ ويستعن على إيذاء الشخص باستعمالك جزء من جسمه أو ملابسه، كخصلة من شعره أو أظافره، أو خيط من ثوبه، أو أثر قدمه في التراب وأن لهن القدرة على التشكل بشكل طير (حدأة أو غراب أو بومة أو ببغاء) أو التشكل بشكل حشرة (كالذباب أو الأفعى). أو بشكل حيوان (كالضبع أو الفيل أو الوعل أو الأفعى). ويجتمع الساحرات في أحلاف بعضهن مع بعض أو مع الجنيات، ويرقص الجمع في ظلام الليل رقصاً خليعاً. وامتحان الساحرة في الماضي لإدانتها أو تبرئتها كان بتجريعها سماً؛ فإذا لفظته اتضحت براءتها، وإذا أصابها المرض تثبت التهمة عليها. وأما في الوقت الحاضر فتستطيع الساحرة أن تعترف بجرمها أمام (السومان) وعندئذ يستطاع تطهيرها من الروح الشرية، فتعود إلى الحياة العادية بين أسرتها. ومثل هذه المعتقدات فاشية بين الناس في خليج غينيا.

وفى جنوب كاميرون وفى جابون يعتقد الناس في (الإيفو Ewous) وهو (خادم) الساحر الخبيث، يرسله في هيئة حيوان صغير الجسم يخفي على العين ليلتهم قلب عدوه فيحل به الموت بعدها بقليل؛ بل هو السبب الرئيسي في أكثر حوادث الموت عند كثير من القبائل. بل هو السبب الرئيسي في أكثر حوادث الموت عند كثير من القبائل. والمثل السائر بينهم هو "أن الموت وليد الحقد" ويعرف هؤلاء السحرة باسم (أكلة لحوم الآدميين) وهم أنفسهم يعتقدون أنهم هم سبب القتل. وبعض الناس يعتقد أن للساحر أربع عيون؛ ثنتان لليل، وثنتان للنهار؛ وأن السحرة تتجمع بالليل لترقص، وأنهم يزرعون شجرة موز تثمر في الليلة نفسها، فإذا سقطت أول ثمرة موز منها تفرقوا. ويعف السحرة من عيونهم الحاسدة، وسها كلماتهم اللعينة، التي توصل أذاهم للناس. غير أن الناس من جهتهم يستطيعون أن يتحاموا شرهم باستعمال مادة زيتية خاصة يدهنون بها أجسادهم، أو بتعليق البصل في فناء الدار، أو وضع تعاويذ في تجويف بوق. وتلجأ الجماعة إلى امتحان كل من يشك في امرأة بمختلف الوسائل، ولاسيما محنة (سربة اللبن) وهي مادة نباتية صمغية إذا لفظها شاربها كان ذلك دليلا على براءته، وإلا كان ساحراً وتعرض للتنكيل بالضرب وأنواع التعذيب، كتسليط جماعات النمل البري على جسمه، ثم ينتهي أمره بالقتل.

وفى أوبانجي تتعري الساحرة وتركب عصا مكنسة. والنوير يعتقدون في الغليلان التي تقتات بجثث الموتى عقب دفنهم. وعند (لباسا) في كاميرون يتخذ للبيت قبران: أحدهما ظاهر والآخر مخبوء، حتى لا يهتدي إليه السحرة من أكلة لحوم الموتى. وعند قبائل (لوندا) يعتقدون بوجود أرواح شريرة يستخدمها بعض الرجال؛ ولكن السحر من خصائص النساء بطبيعتهن؛ لأن الشر في عرفهم كامن في جنس الأنثى. وسحرة قبائل (افيموندو) يقتلون الأطفال منهم خداماً لهم، ثم يرقصون عراة أمام مسكن فريستهم. والشائع أن السحر وراثي في السلسلة النسوية للأسرة غير أننا نجد في هذا الوسط أن كل فرد ناجح في حياته موفق فيها توفيقاً ممتازاً غير عادي، يجر عليه نجاه تهمة الاشتغال بالسحر الأسود.

وفى قبائل (السوازي) يكون السحرة فيما بينهم اتحاداً يتآخون فيه مقسماً إلى مراتب ودرجات. والتراشق إلى مراتب ودرجات. والتراشق بتهمة السحر كثير الوقوع بين أفراد الأسرة الواحدة. وأفظع التهم التي تستوجب القتل أن يتهم ساحر بأنه سبب بوار الزرع. وعند قبائل (باسوتو) لا تقنع الساحرات بأكل لحوم الموتى، ولكنهن يترصدن أرواحهم عندما تذهب إلى عالم الأرواح لاقتناصها والتهامها. كثيراً ما يحدث أنه إذا خرج إنسان على العادات والعرف المألوف أو تعدى آداب السلوك عرض نفسه لتهمة الاشتغال بالسحر الأسود. وهذا من أقوي الأسباب التي تحمل الناس على التزام الطريق السوي.


موريتانيا
تمبكتو
داكار
غينيا البرتغالية
غينيا الفرنسية
ساحل العاج
ساحل الذهب
يوروبا
بحيرة تشاد
دوالا
غينيا الأسبانية
قبائل أفريقيا الغربية

أسماء القبائل وأرقامها

(**1**) أولوف	Oulouf	(**22**) اديوكورو	Adiokourou
(**2**) توكولير	Toucouleur	(**23**) اشانتي	Achanti
(**3**) سبيريس	Sérés	(**24**) فانتي	Fanti
(**4**) ليبو	Lébou	(**25**) إيفه	Ewe'
(**5**) بيل	Peul	(**26**) فون	Fon
(**6**) ساركولا	Sarakolé	(**27**) يوروبا	Yourouba
(**7**) خاسوكة	Khassouké	(**28**) إيبيبيو	Ibibio
(**8**) كونياجي	Coniagui	(**29**) إيبو	Ibo
(**9**) بامبارا	Bambara	(**30**) هاوزا	Haoussa
(**10**) بوزو	Bozo	(**31**) كانورى	Kanouri
(**11**) دجون	Dogon	(**32**) كردي	Kirdi

(12) ديولا Dioula

(13) ماندانج Mandingoés

(14) منده Mendé

(15) سونرهاي Sonrhai

(16) جرمانشي Gourmanché

(17) دجرما Djerma

(18) بوبو Bobo

(19) موسي Mossi

(20)لوبي Lobi

(21) جرزة Guerzé

(33) باوتشي Baoutchi

(34) كوتوكو Kotoko

(35) سارا Sara

(36) بامون Bamoun

(37) باميليكه Bamiliké

(38) بانن Banen

(39) باسا Bassa

(40) بولو Boulou

(41) فانج Fang

(42) أقزام Pygmée

الفصل الرابع

خصائص العقائد الوثنية وتطورها

كنا حتى الساعة بصدد عرض مجمل للحقائق التي استطعنا الوصول إليها ع الديانات الوثنية للزنوج في أفريقيا. وفي هذا الفصل سنحاول أن نلقي عليه نظرة عامة، لنستخلص منها بعض خصائصها، ولنضعها في مكانها بين الديانات البشرية، وأن نعقب على ذلك بتقدير مدى تطورها.

الصفات المشتركة:

تلتقي هذه الديانات كلها عند أساس واحد، هو عمق الإحساس بالروابط الوثيقة التي تربط المجتمع البدائي بالبيئة الطبيعية التي يعيش فيها. وسواء أكان مجتمع صيادين أو ملاك قطعان أو زراع، فهم يعيشون في كنف العناصر الطبيعية وعلى نظامها، حيث لا يتميز الإنسان عن الأشياء ولا تتميز الأشياء عن الآدميين،

وحيث يعتبر البشر أنفسهم صورة من صور الكون الكلي، ويشكلون حياتهم وفقاً لما يتصورونه عن هذا الكون. ولا يرى المجتمع القبلي في الحيوان والنبات. ولا في الجماد، إلا مخلوقات لا يختلف هو عنها وليس له عليها سيطرة ما، فأضفى عليها كل صفات وأحاسيسه ورغباته الإنسانية؛ وصور له خياله بسبب ذلك الإحساس أن الإنسان بالمثل، حياً كان أو ميتاً، له قوة يستطيع بها أن يتخذ شكل حيوان أو نبات. وأن الجماعة الإنسانية ما هي إلا حليفة ونسيبة لجماعة الحيوان، وأنها تستطيع استخدام قواه في حمايتها وقد بلغ من شعورهم بهذه الصلة أن يستأذن الصياد فريسته كي يقتلها، ثم يقدم لها القرابين ليسترضيها ويهدئ من سورة روحها، أو أن ينحر ضحية ما تقربا لقوسه أو بندقيته حتى لا تخطئ إحداهما الهدف.

والإنسان في هذه البيئة لا يحاول معارضة الطبيعة ومقاومتها، وذلك لإحساسه بأنه جزء لا يتجزأ منها، وأنه يستمد وجوده ومقدرته من صميم قواها، ظاهرة كانت أو خافية، تلك القوى التي يدين لها بسلامته ويخشاها على نفسه، والتي يرتبط بها ارتباطاً دائماً وأبدياً. وقد يتبادر إلى الذهن أن تبعية الإنسان وخضوعه لعوامل الطبيعة هناك من أسباب ضعفه الإنسان فيه لاستخدام قوى الطبيعة وإخضاعها لإزادته. ومع هذا فلن تستطيع أن نتناسى أن ذلك الإحساس الرقيق بالتعاطف بين الإنسان وبيئته الطبيعية إحساس يضفي على معتقدات الزنوج الوثنية سمات الجمال والشاعرية، وأنه قد وسع أفق مشاعرهم حتى شمل أرجاء الكون، بدلاً من أن يحصروا كل همهم في نفع الإنسانية وحدها، تلك الإنسانية التي أسرفت المدنية الحديثة في جعل مصلحتها هدفها الأسمى ووضعت لذلك ما وضعت من فلسفات متباينة.

إن الديانات الوثنية أدركت الكون وفهمته على أنه وحدة لا تتجزأ أساسها الأخوة الشاملة وهو إحساس قصرنا نحن المتمدينين عن إدراكه. فخم لا يميزون بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، ولا بين المادة والروح، لأنهم يؤمنون بأن القوة الحيوية الكونية تسري في الخليقة بأجمعها، وتربطها بعضها ببعض. فالروح عندهم هي زفرة من نفس متردد، أو شعلة خالدة يستطاع استردادها. وما المرض إلا قطعة عظم أو خشب إذا استخرجت من الجسم فارقه الداء وحل به البرء. ولا يفرقون بين الحلم والحقيقة. وكل ما انفصل عن البدن، ولو كان قلامة ظفر، أو خصلة من شعر، أو أثر قدم على الأرض، أجزاء تنبثق من الروح، وتسري فيها القوى الحيوية، يمكن استخدامها بالسحر لإلحاق الضرر بصاحبها. والطبيعة ليست مادة، ولا روحاً، وإنما هي قوى حيوية هائلة. والحياة هي جوهر الخير، هي الحقيقة التي ليس وراءها حقيقة.

إن كل من يصف الزنوج الوثنيين بأنهم خضعوا لقوى غيبية، رهبة وفزعاً، لا يبعد عن الصورة الحقيقية لهم، ولكنها صورة غير كاملة، أن للزنجي عذراً لأنه يعيش في كنف تلك القوى. إنها قد ترهبه وتؤلمه غير أنه رغم إساءتها له، يستمد منها حياته وكيانه وقوته. وما شعوره بالاعتماد عليها وإحساسه بقدرتها على التصرف فيه إلا مزيج من الاستسلام والثقة في بيئة مألوفة له، عركها وعركته. وما الشعائر الدينية والمحرمات التي خطرها عليه المجتمع إلا وسائل يتذرع بها طلباً للوقاية والسلامة والاستزادة من القوى الحيوية. وإذا كان الفرد منهم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالطبيعة فهو أشد ارتباطاً بالمجتمع الذي ينتسب إليه، إذ لا تقف صلته به عند حدي مولده ومماته، بل تظل هذه الصلة قائمة حتى بعد الموت، إذ نجد أن الموتى من الآباء والأجداد يهيمنون على الأحياء من وراء أجداثهم، إذ أنهم المؤسسون للأسرة أو القبيلة، والقوامون على حفظ القانون والنظام والأخلاق والعادات، كما أن لهم الحق في عقاب المذنبين والخارجين، ومكافأة المطيعين. وكما يرتبط الفرد بآبائه وأجداده فإنه يرتبط كذلك بآلهة الجماعة ارتباطاً تفسره الأساطير والأقاصيص التي توارثتها الأجيال عن تاريخ نشأة الكون.

فالديانة لديهم هي حلقة الاتصال بين أفراد المجتمع فيما بينهم، وبين المجتمع والقوى العلوية الآلهية وكما أن كلمة (ديانة) مأخوذ أصلها من كلمة (صلة) في اللاتينية فإن الكلمة نفسها في لغة قبائل (بامبارا) تفيد كلا المعنيين (الصلة والدين)..

ومن البديهي أن ديانة هذا شأنها (نبتت بين جماعة صغيرة ضيقة الحدود منطوية على نفسها) لابد لها من أن تفرض على أفرادها سلوكاً مثالياً، وخضوعاً مطلقاً لعاداتها:

تعالى معي تستمع إلى حديث المبشر الكاثوليكي (أوبياس) Aupiais وهو أحد أفذاذ المشتغلين بعلم الأجناس فقد أطرى آداب الزنوج وأخلاقهم، بما لم يمتدحهم به أحد من قبل. قال "أن تمسك مجتمعهم بالأوضاع المتوارثة قد أورثتهم استقراراً وثباتاً، تمكنوا به من أن يشيدوا تراثاً هائلاً من الأخلاق، يشيد جيلاً بعد جيل، على ممر الزمن السحيق" ثم أشاد برجاحة عقولهم واتزانهم واحترامهم للقانون

وأولي الأمر منهم؛ كما نوه بدقة نظامهم الاجتماعي وفضائلهم الفطرية فلهوهم وطربهم ما هو ألا تعبير عن عمق استمتاعهم بالحياة، وتجاوبهم مع العالم الذي يعيشون فيه؛ كما أمتدح ظرفهم، وحسن سلوكهم، وأدبهم الجم، وصبرهم على المكارة، ونكرانهم لذواتهم واستغراقهم في الحياة الروحية. وهذه هي مقومات حضارتهم الفطرية الواقعية، التي وصلت إليهم من خلال شعائر وتلقينات وعادات ومهارات وأساطير ومعارف نشأة الكون.

ويبدو أن الوثنية ديانة لها مراتب من العلم متفاوتة بين الناس يقتصر علم العامة بها على بسائط المعتقدات التي يسميها (البامبارا) قشور العلم. وهي جزء طفيف من الرموز وأسرار الكون، التي لا يعلم حقيقتها إلا خاصة من حملة الأسرار العلوية. وهذه الأسرار معقدة تعقيداً مقصوداً حتى تعمى على الفهم، وتستغلق على الأذهان. وكان تعقيدها سبباً في صعوبة الاهتداء إلى حقيقة الديانة الوثنية، وفي تضليل الباحثين عنها. وفوق طبقة العامة توجد طبقات عديدة من حملة الأسرار، يقل عددها كلما ارتفعت مرتبتها، حتى تصل إلى درجة من الأسرار الدينية يصعب على الفهم إدراكها جملة وتفصيلاً.

وأمة الزنج

مثلهم في ذلك مثل بقية الإنسان، توجد بينهم قلة من الرجال الذين تأملوا في أسباب الحياة وأسرار الطبيعة وصاغوا فلسفتها وأساطير الخليقة الأولى. وهؤلاء هم الصفوة الممتازة التي تعلم التفسير الكامل لأسرار الوجود وما الشعائر والرموز سوى ناحيتها الظاهرة لسواد الناس، والتي تتحكم في وجوه نشاطهم. فما من حركة دينية أو عادة اجتماعية، أو أصول مرعية بين الناس، إلا ولها مغزى ديني، بل العالم المستتر الخفي حاضر في أذهانهم وخلدهم، لأنه ماثل في رموزهم. ومن هنا يدرك أهمية الاحتفالات والأعياد الدينية، فكل حركة يتحرك بها إنسان حتى أقل حركة من الحداد لها أصولها في دينهم. والاحتفالات الجماعية هي أعظم الشعائر الدينية لأنها تعبر تعبيراً تاماً عن الحياة الخلقية والاجتماعية والفكرية للمجتمع. مظهره ومصدره حيويته. هو ما سماه الأب (أوبياس) بالروح الاحتفالية المتأصلة في الزنوج قال "أوبياس". "يجب أن نعلم أن – الجماعة هي الروح المتأصلة في طبيعة القبيلة الزنجية. وما الاجتماعات والأعياد ألا مظهر شغفهم بها. والزنوج يفكرون تفكيراً جماعياً: فإذا دعوا آلهتهم دعوها جمعاً،

وإذا ابتهجوا كان ابتهاجهم وطربهم جماعياً في وحدة عجيبة تربطهم بعضهم ببعض، حاضرهم وغائبهم، وحيهم وميتهم. وتلك الحيوية العارمة المتدفقة تبدو في انفعالاتهم الصارخة وسط مظاهر عظيمة من الاحتفال والابتهاج الجماعي، حول سماط واحد مزدحم بألوان الطعام يشترك فيه الجميع سواسية".

ولهم في جميع ابتهاجاتهم الروحية وشعائرهم الدينية أغراض نفعية. فهي في زعمهم تجديد لعالمهم، واستزادة من القوى الحيوية، أو وسيلة لاستنزال الغيث أو تكثير النسل. وهم كذلك يسترضون بها أبائهم، ويتوسلون بها إليهم ليستدروا عطفهم وحمايتهم؛ كما يتوسلون بها إلى آلهتهم وإلى سائر القوى الخفية التي تسيطر على حياتهم. ولا يرون في السحر تناقضاً مع دينهم، وإنما يستعينون بقوته الخفية على إدراك مصلحة فردية. ولهذا يعتقدون أن الطلاسم مثلها مثل المحاريب في البيت، منهل من مناهل القوى. فالسحر في عرفهم ما هو إلا وسيلة لاستجلاب القوى الحيوية الكونية، واستدرار تلك الطاقة العلوية التي تعبر هي الجوهر الفرد في جميع عقائد الزنوج الوثنيين، حتى الهوا السحر في قبائل غينيا الجديدة.

تعدد الديانات:

أن كثيراً من عناصر تلك الديانات مشتركة فيما بينها. إلا أن الأوضاع الجغرافية ونوع الحياة والنظم الاجتماعية تجعل لبعض تلك العناصر الغلبة على غيرها في بعض الأصقاع. ولذلك تعددت الديانات بشكل جعل من العسير حصرها وتبويبها.

ففي قبائل البوشيمان، وهي تتعيش من الصيد والقنص وتلمس الغذاء من الطبيعة، نجد أن الجماعة تحيا حياة البدو، لكثرة تنقلها. ولذلك تمتزج بالبيئة الطبيعية، وهم لذلك يمجدون الحيوان بوصف أنه أخ للإنسان أو توءمه، وهو الحامي والراعي للقبيلة. كما يعتقدون في جنيات الأحراش، ويؤلهون الشمس والنجوم. ولهذا السبب نرى السحر الخاص بأغراض الصيد يحتل في معتقداتهم مكاناً بارزاً. وبين قبائل أفريقيا الجنوبية والشرقية، وهي قبائل زراعية في صميمها، نجد أساطير عن الشمس والفصول والسماء والظواهر الجوية. ونجد القبيلة تلتف حول عبادة أبطالها القدماء وآلهة السماوات. وأما الموتى من الآباء والأجداد فهم أموات إلا أنهم أحياء، يدخلون في زمرة آلهة الأرض والعالم الذي يعيش في باطنها. وقبائل النيل الأعلى يعبدون أيضاً أبطالها وآلهة الظواهر الجوية.

أما في الغابات الاستوائية الأفريقية فيسود الاعتقاد بفعل السحر لاصطياد الحيوان وتراعي الشعائر الدينية الزراعية إلى جانب عبادة الآباء والأجداد وتقاليد الختان. والآلهة بينهم أما ذكور وأما إناث، تبعاً لتكوين المجتمع القبلي فإذا كانت السيادة فيه للرجل كان الإله ذكراً، وإذا كانت السيادة فيه للمرأة كان الإله أنثى. والأساطير التي تدور حول الحيوان والنبات منتشرة بينهم. وهي تؤكد صلات القربى بين الإنسان وبين الحيوان والنبات.

وأما الزنوج الأصليون المنتشرون من أعالي غينيا إلى أعالي النيل فصيادون. ولذلك يزعمون أن أصولهم تنحدر من بعض الحيوان، شأنهم في ذلك شأن بقية قبائل الصيادين. ولما كانوا أهل زرع أيضاً فيعبدون إلى جانب ذلك إلهة للطبيعة وإلهة للأرض، كما يقدسون أسلافهم المؤسسين للقبيلة. ولما كان نظامهم السياسي لا يفرض عليهم الخضوع لرئيس ما فقد تبعت كل فئة منهم عقيدة خاصة. وبذلك انقسمت إلى فئات دينية متعددة.

ونجد المناطق السودانية نفس العناصر الدينية وهي عبادة الأرض، وعبادة الأجداد والأبطال، غير أن تلك القبائل أكثر عدداً وأشد تماسكاً. وتضم الجمعيات الدينية هناك كل المراهقين المختونين الذين تلقوا مراسم الأسرار في القبيلة. وتلعب هذه الجمعيات دوراً هاماً في توثيق الروابط القبلية بإقامة الحفلات الدينية العظيمة بين فترة وأخرى، بمناسبة المواسم الزراعية. ونرى الأساطير عن خلق الكون وعن بدء الخليقة، والذخيرة الجمة من الرموز منتشرة ومتشابهة في تلك المنطقة الفسيحة (من السودان الفرنسي حتى أعالي نهر فلتا).

وأما في المناطق الممتدة على ساحل غينيا (في الجزء الشرقي من ساحل العاج، والأراضي الواطئة من ساحل الذهب، وتوجو، وداهومي، وجنوب غربي بلاد نيجيريا) فالحال تختلف عن بقية المناطق، إذ تتميز تلك الأجزاء بقيام ممالك ذات حضارات راقية نسبياًن بفضل اتصالها بالعالم الخارجي. ولذلك طرأت عليها تطورات خاصة في عباداتها تفوقت على أنواع العبادات المعروفة، وأصبح السائد في تلك الأصقاع عبادة الملوك وآبائهم وأجدادهم، وعبادة أبطال الأساطير

، وعبادة الآلهة الصغرى لها كهنوتها وأديرتها وأتباعها. كل هذا أضعف في قبائلها عبادة الآباء وتقديس الأرض. ونلحظ إلى جانب ذلك أن انتشار العرافة والتنجيم والسحر والجمعيات الدينية أضعف من روح التماسك القبلي فتحرر الفرد من سيطرة المجتمع وتكونت له شخصية قائمة بذاتها وكيان مستقل لا نرى نظيره في القبائل الأخرى، وأصبح للفرد في تلك المناطق من الحرية ما يجعله يختار لنفسه معبوداته ونوع عبادته أو الجمعية التي ينتمي إليها ويتآخى مع أفرادها، ولم يعد مجرد خلية من خلايا المجتمع. وهذه الحرية الفرجية الدينية التي يتمتع بها هؤلاء جعلت للأديان الجديدة الطارئة عليهم من الخارج إغراء خاصاً حتى اعتنقها بعضهم.

كيف نسمي الديانات الأفريقية؟

لقد حاول الأوروبيون أن يطلقوا إسماعاً يشمل ديانات الزنج، قياساً على ما تعودوه وهم من ديانات ذات مبادئ محددة ثابتة يدل عليها اسم شامل هو المسيحية. وكان البرتغاليون، وهم الرعيل الأول من المستعمرين على ساحل غينيا، أول من حاول ذلك فأطلقوا على ديانة الزنوج اسم عبادة التماثيل (Fetichisme) لأنهم ظنوا أنهم يعبدون تلك الدمى الصغيرة وهي دمي على هيئة حيوان أو إنسان أو شيء ما. ولكن هذه الدمى لم تكن في حقيقتها إلا رموزاً تمثل أباءهم أو آلهتهم فتسميتهم عباد تماثيل خطأ لا يقل عن خطأ من يسمى الكاثوليك عباد أصنام لأنهم يصلون أمام الصليب وتماثيل العذراء.

وجاء (تايلور Taylor) فتحت اصطلاحاً جديداً كان له رواج واسع وقد استحسنه واستعمله (ديلافوس Delafosse) والاصطلاح هو (عبادة الحياة) Animisme وتقدم (ماكس موللر Muller) بكلمة (عبادة الطبيعة) Naturalisme و (بارندر Parrinder) بكلمة تعدد الآلهة) Polythéisme وقامت بين الباحثين في الديانات مساجلات لمعرفة هل توجد في أفريقيا عبادة الأسلاف من غير البشر، المسماة بالطوطمية Totémisme أو عبادة أرواح الموتى Manisme: ومنهم من اقترح كلمة تلقائية dynamisme أو حيوية Vitalisme:

ولكن من هذه المصطلحات مدلول يتفق مع وجع واحد من أوجه العقائد الزنجية فكلمة animisme تدل على الاعتقاد بوجود نفوس أو بالأخرى أرواح خفية تسري في الطبيعة بجميع أجزائها.. و (تعدد الآلهة) يدل على الاعتقاد بأكثر من آله واحد والطوطمية تدل على عبادة حيوان انحدر منه الأسلاف وتتجسد فيه وحدة القبيلة. و (المانزم) يدل على الاعتقاد ببقاء النفس بعد فناء الجسم. والحقيقة التي لا شك فيها أنه توجد من جميع هذه العناصر في ديانات الزنوج.

ولكن ليس لأحدها الشمول والغلبة على غيرها بحيث يفرض نفسه على عامة معتقداتها. وأما التلقائية والحيوية فنظريات لها تطبيقاتها الفلسفية خارجاً عن نطاق الديانة. وحيث أنه من غير المستطاع أن نرد تلك الديانات إلى أصل واحد يشملها فقد رأينا من الأنسب أن نطلق لفظه جاهلية Paganisme وهي كلمة أطلقت في الماضي على الديانات القديمة المحلية في أوروبا، تمييزاً لها عن الدينين العالميين الجديدين، وهما الإسلام والمسيحية. ونعتقد أن هذه الكلمة أصلح المصطلحات وأدقها فإنها فضلاً عما توخي به من المشابه للديانات الأوروبية القديمة تذكرنا في الوقت نفسه بأنها ظهرت قبل كل شيء في مجتمعات قروية غير متحضرة (Pegus = Pays. Païen = Paysans).

ولا ينبغي أن يتطرق إلى الذهن أن هذه التسمية فيها احتقار أو زراية، بل عل العكس إذ أن الديانات القديمة هي التي شيدت تلك المدينات العظيمة، كالمدينة المصرية والمدنية الرومانية والمدنية الإغريقية، التي تولدت عنها إلى حد كبير ثقافتنا الغربية.

مقارنات:

إن ديانة الإغريق القدماء، وخاصة في العصر العتيق، تشبه من وجوه كثيرة ديانة الزنوج؟ إذ نجد عند سكان جزر بحر إيجيه هذه الرموز الدينية نفسها: الشجرة والعمود والقرون والأفعى والكائن الخرافي الذي هو نصف آدمي ونصف حيوان. ولهذا الأخير صور ما توال نقوشها ظاهرة على اللوحات الثرية في فرنسا وأسبانيا (الأرجح أنها كانت أقنعة تشبه أقنعة الزنوج).

وكانت حضارة اليونان البدائية حضارة زراعية كذلك، تقدس الزراعة، وتقيم لها الأعياد الجماعية وحلبات الرقص وكانوا يقدسون الجبال والشجار والأرض التي يخلعون عليها صفة الأمومة أرواح الموتى في شخصية الجماعة، وبأن بعض الأشياء كاللبن والخبز والماء وهي قربانهم للآلهة ترتبط بها خصائص دينية. وكانت عندهم الضحايا من الحيوان وكذلك من البشر. كما نجد عندهم الصلة بين الأفعى وبين تقديس الموتى. وشمل اعتقادهم خرافات "الحيوان الآدمي" وقدسوا الحيوان الراقص (الدب في أثينا، والكركي في ديلوس)

وكان من سنتهم طلاء أجسامهم باللون الأبيض وتثقيف الأطفال وتلقينهم أسرار المراهقة، واستعمال الأقنعة وانتشار الجمعيات السرية الدينية، وتقديس الحداد، والاهتمام بالتوائم، والاعتقاد بالأحلام وبالحظ، وإقامة الأعياد الجماعية الموسمية، والاعتقاد في الآلهة العليا البعيدة عن المخلوقات، والتي تكاد تنحصر مهمتها في حماية الوجود، دون أن يكون لها دخل في الحوادث. وهناك أيضاً طرأ تحول على عقائد اليونان باتساع أفقها السياسي. فبعد أن كانوا يعتقدون في تلك القوى الخفية التي تحمي المجتمع المحدود، واتجهوا إلى تقديس العظماء في شخص أبطالهم الذين أسسوا حضارة المجتمع الإغريقي. ومع هذا فقد بقى في اليونان القديمة من تلك الديانات المحلية آثار تدل على تقديسهم لمواطن خاصة ومحاريب معينة كانوا يزودون قواها بدماء الذبائح، كما بقيت عندهم عادة الكفارات للآلهة الذين تحت الأرض، والاهتمام بالعددين 7، 9 وبالرموز والتماثيل، وكذلك بقيت الآلهة والجان التي تعمر أرجاء الطبيعة حولهم بلا حصر ولا عدد.

وأما الرومان (اللاتين) فكانت ديانتهم قريبة جد القرب من الديانة الإغريقية، بحيث يصعب التفرقة بينهما. فالدور الذي لعبته فكرة السلاف، وتقاليد المجتمع القديم، ومحراب الأسرة، واعتبار الأب كاهناً للأسرة، والقاضي الكاهن، كانت كلها مظاهر لديانة اجتماعية اشتراكية، غير أن فتوحات روما وتوسعاتها حطمن ذلك التماسك الاجتماعي القديم، فتحرر الأفراد واعتنقوا ديانات أجنبية، وانتشر بينهم السحر والشعوذة، وتأسست الفرق الدينية التي لا تربط أعضاءها روابط عنصرية. وهكذا بدأ السير نحو ديانة عالمية.

فإذا قارنا الديانات الزنجية بديانة قدماء المصريين وجدنا أوجه الشبه بينهما أوفى وأوفر. فتاج فرعون كان على شكل حلزوني تحيط بي أفعى. وفرعون نفسه كان يعد مصدر الحياة والقوة والخصب للأجيال وخاصة في النواحي الزراعية. ونجم الشعري اليمانية قدسه المصريون، وكان هو أساس التقويم المصري القديم. وكان يرمز لفرعون بصورة صقر كما اتخذت بعض الجهات في مصر الفيل والحدأة والشمس شعاراً لها.

وأما (كا) Ka وهي الروح الشائعة التي يستمد منها كل كائن حياته وقوته فتبلغ أقصى اكتمالها وتمامها في شخص فرعون نفسه. وكان (أوزيريس) إله الماء والنيل والزراعة. وشرع المصريون قوانين صارمة لحماية المجتمع كانت المحظورات فيها لا تحصى، وكانت مخالفتها تعتبر جرماً ضد نظام الكون..

ونحن نستطيع هنا أن نستكثر من هذه المقارنات وأوجه الشبه بين ديانات الزنوج وبين الديانات القديمة في القارات الأخرى، وبينها وبين الخرافات السائدة إلى اليوم في القارة الأوروبية، بل بينها وبين الأديان العالمية مثل المذهب الكاثوليكي، إذ نجد فيه عقيدة الإله الخالق لكل شيء، والإيمان بالأرواح والخطيئة الأولى للإنسان، وقداس القرابين وشعائر (سر المناولة) وهذه أشبه ما تكون بشعائر التثقيف والختان عند قبائل الزنوج الوثنية.

وقد يخطر لسائل أن يسأل: إلا أن يكون أصل ذلك التشابه من جراء تفاعل وأثر متبادل من الجانبين؟... والجواب أنه ما من شك في ذلك، إذ أن القارة الأفريقية ليست من المتعة بحيث لا يمكن النفاذ إليها كما كان يعتقد البعض. فلا شك أن مصر كانت على اتصال دائم بسائر أجزاء القارة، عن طريق مجرى نهر النيل وعن طريق الصحاري التي كانت أكثر رطوبة وأقل جفافاً في الماضي البعيد مما هي عليه الآن. وما من شك في أن القوافل قد نقلت إلى بلاد الزنوج بعد ذلك أصداء من معتقدات الإغريق عن خلق الكون. ولم يكن تأثير الإسلام في شمال القارة بأقل من تأثير المسيحية فيها من جنوب الساحل الغربي. واغلب الظن أن ما نقله (بيراندا Birinda) عن الاعتقاد بالآلهة البيضاء وشجرة الحياة في الممالك الزنجية بالقسم الأدنى للكنغو لم يكن إلا أصداء وصلتها عن السيدة العذراء وسفر التكوين، عن طريق المبشرين البرتغاليين في القرن السادس عشر. وأما عبادة الأفعى التي يزعمون في الساحل الشرقي أن روح الجد الأعلى تقمصتها وأنها خرجت منه لما تحلل جسده فقد يجوز أنها من أصل في الملايو أو مدغشقر.

ورغم كل ما قدمناه فلن نستطيع أن نجزم برأي قاطع في تحديد تلك المؤثرات الخارجية، ومدى اقتباس الديانات الزنجية منها، ونستطيع أن نقول في ضوء علومنا الحالية أنها اقتباسات جد سطحية، وأنها لن تغير شيئاً من الحقيق الواقعة، وهي عمق الروح الدينية وتمكنها من النفس الزنجية، ولن تجرد هذه الديانات من خصوبة خيالها وثروة أساطيرها الشيقة..

وإنما كان همنا في تلك المقارنات أن نثبت أننا نجد في نواح أخرى غير أفريقيا أوضاعاً دينية تشبه في تكوينها الديانات الزنجية، وأن الزنوج لم ينفردوا بعقائد تشذ عن عقائد الآخرين، وليسوا استثناء من القاعدة العامة. أن الإنسانية في مراحل تطورها الفكري تؤلف وحدة متجانسة وأنها أشد وحدة وتجانساً مما كان يظن فيها.

تطور المعتقدات الزنجية في الوقت الحاضر:

أن ديانات تتسم بهذا الطابع الجماعي وهذا السلطان المطلق في بيئة جغرافيا ضيقة الحدود ما كان لها أن تنشأ إلا في جماعة قليلة العدد شديدة التماسك، في ظروف وأحوال سادتها الفوضى وانعدم فيها الأمن، وشقت فيها حرية التنقل لوعورة المواصلات ومخاوف الطريق، فانحصرت تلك الجماعات في رقعتها المحدودة، وخضعت لسلطات دينية أو سياسية قاسية. فمتى طرأت على حياة القبيلة ظروف جديدة ضعفت فيها هذه الروابط الاجتماعية ووهنت سيطرة الدين وتطورت مظاهرة. لقد تغيرت الظروف فعلاً، وحدث هذا التطور تحت وطأة الاستكشافات الحديثة في القارة الأفريقية، وتحت وطأة زحف المستعمرين إلى قلبها، فأحدث بها الانقلاب السريع الذي نشهده اليوم. نعم أنه أسرع في بعض الأصقاع منه في البعض الآخر إلا أنه يجتاحها كلها اجتياح السيل الجارف. هكذا أدى استتباب الأمن نتيجة للاستعمار إلى شل سلطة زعماء القبائل،

ولم تعد هناك ضرورة للتماسك الاجتماعي في الدفاع عن كيان القبيلة، فتقع ذلك تضعضع السلطة الدينية وسلطة الرؤساء الروحانيين وقدسية الملوك وأصبحت الأوقات التي كانت مخصصة للاحتفالات الدينية تزاحمها وجوه أخرى من النشاط. فاليوم يقصد الأطفال مدارسهم، ويشتغلون ليكسبوا رزقهم ويسددوا الضرائب المطلوبة منهم ويقتنوا حاجياتهم من السلع والمصنوعات، فاختصرت الحفلات أو عطلت. وأصبح العلم بأسرار الرموز والأساطير في المرتبة الأخيرة من مشاغلهم، ولم يبق للأعياد الدينية ذلك الإغراء وتلك الجاذبية للشباب، بل أصبحوا لا يجدون حرجاً في إتيان المحرمات التي كانت محظورة عليهم.

وكان الفرد في الماضي مرتبطاً بموطن القبيلة ارتباطاً تاماً. أما اليوم فقد اضطرته الأحوال الاقتصادية الحديثة أن يفارق بيئته طلباً للعمل والتكسب بعيداً عنها، فوهنت الصلة بينه وبينها وبينه وبين آلهتها وأسلافها. فإذا رجع إليها عاد وفي جعبته مال يفوق بشكل بارز للعيان كل ما كان يملكه أجداده.

وبذلك استطاع الفرد أن يتحرر من ربقة الجماعة وتحكمها في كيانه، وهجر كثير منهم مواطن آبائه وأقام في المدن تخلصاً من هيمنة المجتمع. وحتى أولئك الذين يعودون إلى حظيرة القبيلة فإنهم لا يشتركون في أعيادها الدينية وعقائدها بكل قلوبهم ولا بكامل خضوعهم؛ ذلك لأنهم عادوا يحملون عقلية جديدة وأسلوباً آخر للحياة..

وثمة عامل آخر كان له أبلغ الأثر في حياتهم الفكرية ذلك هو التعليم الحديث الذي أمدهم بمعارف وحقائق حديثة تناقض ما تلقنوه عن آبائهم وأجدادهم، ووجدوا في العلم الحديث طلبتهم في الوقوف على سر الكون الذي لم يعرفوا له تفسيراً مادياً غير الأساطير والأقاصيص التي توارثوها عن أسلافهم..

تحت تأثير تلك العوامل كلها تخلص الفرد من تحكم الأسرة والمجتمع في كيانه غير أنه خسر من ناحية أخرى؛ إذ باء بالحرمات من ذلك الأمن والاطمئنان الذي كانت تبعثه في نفسه علاقته بالجماعة ونظرته إلى البيئة الطبيعية. ومن هنا نشأ الشعور بين الناس بالحجة إلى إعادة بناء الهيئة الاجتماعية وبالحاجة إلى معتقدات جديدة تتمشى مع التطورات الحديثة؛ فقد عجزت الديانات الموروثة أن تضطلع بعبء هذا التجديد وسد تلك الحاجة

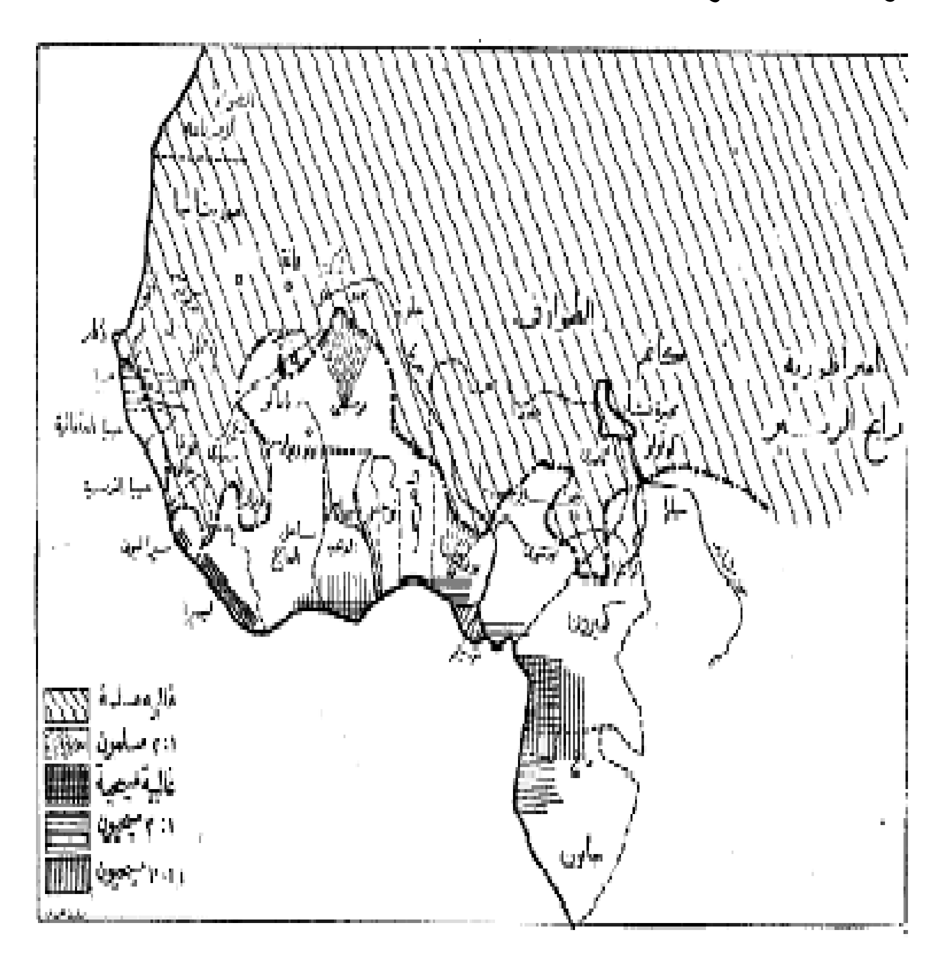
لأنها لا تقوم على أسس ثابتة واضحة أو كهنوا منظم، ولأن المراتب العليا من علومها ظلت أسراراً غريبة متقلبة معقدة تعقيداً شديداً. فلم تستطع البقاء على حالها، إلا في أكثر المناطق البعيدة عن العمران والتي يعيش أهلها منطوين على أنفسهم، ولاسيما القبائل الأصيلة في الزنجية.

وأما في المناطق القريبة من المدن أو من المواصلات، وحيث يوجد المنجم أو المزارع الشاسعة التي تصدر محاصيلها، وفي المناطق المتفرقة السكان التي ينتزع سكانها من مواطنهم تلبية للحاجة إلى اليد العاملة، ففي هذه الأرجاء يسير التفكك الاجتماعي والديني سيراً حثيثاً. ومن هنا نبت الشعور بين هؤلاء الزوج المتحررين بالحاجة إلى أجوبة جديدة تهدئ اضطرابهم الروحي وتشبع فطرتهم الدينية.

ولقد استطاعت الديانات الموروثة في بعض الحيان أن تجد هذه الأجوبة بعد شيء من التعديل كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. هكذا نجد في ساحل غينيا مجتمعاً يؤمن بالآلهة الصغرى مكوناً من عناصر متباينة، فيهم المختونون المتطوعون، وفيهم الرهبان والكهنة، وأعضاء الجمعيات الدينية. وهو مجتمع أقرب شبهاً بالجماعات الأوروبية منه بالجماعات القديمة ذات ال العقائد المتحكمة والمؤسسة على مبدأ القرابة. وكان انتشار السحر وحلقات الزار وظهور آلهة جديدة وطوائف دينية مستحدثة (كما سنرى) مما أشبع هذه الرغبات الجديدة.

غير أن الذي استفاد استفادة حقيقية من هذا التفكك المستمر للديانات القديمة، ومن هذا التحرر المفاجئ للأفراد الذين فقدوا إيمانهم بدين آبائهم مع احتفاظهم بفطرتهم المتدينة، هما الدينان العالميات الطارئان والقائمان على الوحي السماوي: أعني الإسلام والمسيحية. هذه الحالة التي تمر بها زنوج أفريقيا اليوم شديدة الشبه بحالة الديانة الإغريقية الرومانية في فترة اضمحلالها عندما اجتاحتها الديانات الكبرى الشرقية.

وأفريقيا اليوم تجتاز هذه الفترة العصيبة من الاضطراب الروحي التي تؤذن بانبثاق فجر جديد...



القسم الثاني

الدينان الجديدان

الفصل الأول

الاسلام

(أ) انتشار الدين الإسلامي:

الإسلام في غرب إفريقية الفرنسي:

عاشت الأديان الزنجية الوثنية بمنأى عن العالم الخارجي، يحميها البحر والصحراء. ولكن الصحراء لم تكن من المنعة بحيث لا يمكن النفاذ إليها، فطرق القوافل تخترق أرجاءها. وحدودها الغربية البحرية أشبه ما تكون بجسر يربط بين مراكش وبلاد السنغال، تغطيه المراعي الصالحة لرعي الماشية وحياة البدو....

وقد ارتاد تلك المراعي في القرن الحادي عشر قبائل (لمتونة) من البربر، ومن المحتمل أن تكون قد فرت أمام غزو العرب[2]. ثم نزل بينهم شيخ صالح هو "ابن يس" وأقام في جزيرة صغيرة قريبة من ساحل السنغال، حيث أسس له رباطً (زاوية)

---

[2] وهم قبائل بني هلال التي أرسلها الخليفة الفاطمي لإخضاع إفريقيا الثائرة عليه ....

وعرف أتباعه باسم " سؤدسيين" وقد اعتنقت قبائل لمتونة الإسلام على يديه، وعاهدوه على الجهاد في سبيل الإسلام، فاتجه بطن منها فغزا مراكش (وأسوا بها دولة المرابطين)، واتجه آخرون إلى غزو البلاد المجاورة وهي مملكة (غانا) الزنجية الوثنية (بين سنغال والنيجر) فاستولوا عليها في **1076**م واعتنق السكان وهم قبائل (سارا كولا) الدين الإسلامي. ولم تقف دعوة المرابطين عند هذا الحد، بل تخطته إلى قبائل أخري، فقد حدث أن اعتنق أمير قبائل الماندانج الدين الإسلامي، فراراً من ثورة شعبه عليه عندما فشل في إنزال المطر بأرضه. وأسس أحد خلفائه (سوندياتا كيتا) Sondiata Keita في القرن الثالث عشر إمبراطورية (مالي) Mali التي امتدت إلى أعالي النيجر، فأصبحت مملكة غانا خاضعة له. وخلف سوندياتا هذا (مانسا وله) Mansa Oulé ويلقب بالملك الأحمر، وقد أدي مناسك الحج في مكة. والواقع أن بلاد السودان تمتد في قلب أفريقيا، دون أن تعترضها حواجز طبيعية. وبها من النبات والسكان

ما يسهل للمسافر المزود بالمئونة والهدايا والأعوان اجتيازها في غير عناء. وقد كانت هذه الإمكانيات في حوزة ملوك الماندانج، إذ كانت عندهم مناجم التبر التي استغلوها في بامبوك Bambok حتى أن أحدهم وهو (جونجو موسي Gongo Moussa) لما خرج ليؤدي فريضة الحج في القرن الرابع عشر بطريق ساحل البحر الأبيض المتوسط، أظهر من أبهة الملك والبذخ ما بهر أعين العرب في تلك الأنحاء.

وكانت صلاته بمراكش ومصر وثيقة، وقصد بلاطه جماعة من العلماء والأدباء. وفى هذا العهد خضعت مملكة (السونرهاي) التي أسسها زعماء قبائل (لمتونة) في حوض نهر النيجر الأوسط (جاو وتمبكتو) لسلطة إمبراطورية (مالي). ثم استرد ملوك السونرهاي استقلالهم في القرن الرابع عشر. وفى أوائل القرن السادس عشر الميلادي أدي أحد ملوكهم (مامادوتوريه) MamadouTouré (أي محمد نوريه)

فريضة الحج في موكب حافل ضخم، وقابل وهو في طريقه إلى مكة خليفة المسلمين إذ ذاك. ولما عاد من الحج أعاد تنظيم ملكه على أساس ما رآه من النظم الإسلامية في المماليك الشرقية التي مر بها، وضم إلى مجلسه العلماء والأدباء. ومنذ ذلك العهد بدأت تشتهر مدينة تمبكتو. ومد ملوك (السونرهاي) فتوحاتهم على طول نهر النيجر حتى (داهومي الشمالية) ولكنهم اصطدموا في الجنوب بمقاومة قبائل (الموسى) ولم يفلحوا في نشر الدعوة الإسلامية بينهم. ومن جهة أخري استطاعت قبائل بامبارا الوثنية في منطقة النيجر الوسطى أن تنتقص إمبراطورية (مالي) وتتخطف أطرافها. وفى عام 1591 أرسل سلطان مراكش فرقة من المرتزقة اخترقت الصحراء مزودة بالأسلحة النارية التي استعملت لأول مرة في تلك الأرجاء، فاستولت على مملكة (السونرهاي) وخربتها وقضت عليها، وحكمت جاو وتمبكتو باسم السلطان، وأشاعت فيها الفوضى، وأرهقت أهلها بالضرائب وهكذا اضمحلت أعظم سلطة سياسية إسلامية في تلك الأنحاء، إذ استردت منها الوثنية بعض أراضيها، فانحاز الإسلام بذلك إلى حدود الصحراء. ورغم ذلك فقد ظلت بعض القبائل على الإسلام، مثل قبائل (سارا كولا) و (السونرهاي) وبعض قبائل (الماندانج)

كما ظلت قبائل (توكولير) في حوض نهر السنغال على إسلامها منذ أن اعتنقته على يد المرابطين. وقد حدث أن خضعت قبائل توكولير هذه زمناً ما لسلطان قبائل (البيل) الوثنية، إلا إنها تحرر منها في القرن الثامن عشر الميلادي، واتخذوا لمجتمعهم نظاماً إقطاعياً دينياً ونصبوا عليهم إماماً يخضعون له، وأصبح موطن قبائل (النوكولير) وهو يعرف باسم (فوطاتورو Fouta toro) مركزاً من أكبر مراكز الدعوة الإسلامية والتحمس لها في غرب إفريقيا، بفضل اتصال تلك القبائل بطريقتي القادرية والتجانية، اللتين وصلتا إليهم من شمال إفريقيا. واستطاعت قبائل (النوكولير) هذه أن تجعل قبائل (الأولوف) القاطنة في غربها على اعتناق الإسلام. كما اعتنق جيرانهم قبائل (البيل) الدين الإسلامي وأسسوا اتحاداً دينياً في الهضبة المعروفة باسم (فوطا جالون) في غينيا، وجعلوه مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية بين القبائل الوثنية المجاورة. وقبائل (البيل) من القبائل الرحل التي تعنى بتربية الماشية، وقد اتخذت مدينة (مآسينا) على نهر النيجر الأوسط موطناً لها، حتى أصبحت لها كثرة عددية فيها وفى نيجيريا الشمالية. وكانوا خاضعين وقتاً ما لملوك القبائل الوثنية من "البامبارا" و "الهوزا" إلا أن دعاة المرابطين من أهالي "

وكوليرا" حرضوهم على الثورة ضد هؤلاء في القرن الثامن عشر، وانتهت ثورة "البيل" إلى خلع سيادة "البامبارا" وإلى تأسيس ملك مستقل لهم بمدينة "مآسينا" وأما في قبائل "الهوزا" فقد قام المرابط "عثمان دان فوديو Dan Fodio للدعوة بينهم، فدخلوا في الإسلام أفواجا، فأثار ذلك ملوكهم الذين دأبوا على اضطهاد المسلمين. فما كان من عثمان الداعية إلا أن دعا إلى الجهاد فاجتمع له جيش كثيف من الفلاحين والرعاة من قبائل "هوزا" و "البيل" الهاربين من إرهاق الحكام الإقطاعيين وفى عام **1804** أعلن الجهاد بالفعل، وهزم جيوش الوثنين وأسس إمبراطورية عظيمة في شمال نيجيريا، واتخذ له عاصمتين هما "سوكوتو" و"كانو" وأعلن نفسه أميراً للمؤمنين. وقد انقسمت إمبراطورتيه بعد وفاته. إلا أن قبائل "الهوسا" اعتنقت الإسلام وأصبحت حصناً من أقوي حصونه انتشرت منه الدعوة إلى أواسط نيجيريا وشمال بلاد كاميرون:

وفى عام **1860** قام الحاج (عمر تال Tal) وهو داعية من المرابطين من قبيلة (توكولير) وموطنه السنغال الأدنى، بعد أن قضي زماناً مجاوراً بمكة، فأسس في بلاد (فوطا جالون) شعبة قوية للطريقة التيجانية. ثم أعلن الجهاد على القبائل (البامبارا) الثنية، وهزمهم واحتل عاصمتهم (نيورو)، ثم اتجه بعد ذلك لضم بلاد السنغال، إلا أنه اصطدم بجيوش المستعمرين الفرنسيين تحت قيادة الجنرال (فيدرب Faidherbe) فحول اتجاهه إلى مملكة (البيل) المسلمة وأخضعها بعد أن قتل ملكها. ومنذئذ نشب الشقاق والتناحر بين أتباع طريقتي القادرية (وهم البيل) والنيجانية (وهم أتباع الحاج عمر)، ولكن (البيل) لم يصبروا على تحكم الحاج عمر فيهم، فحاصروه وألجئوه إلى مغارة، وأطلقوا عليها الدخان، فمات فيها مختنقاً. ثم خلفه ابنه أمادوا (احمد) وظل ملكا في عاصمته (سيجو) حتى قبضت عليه الجيوش الفرنسية المستعمرة...

وظهر في حوض نهر النيجر الأعلى داعية آخر يسمي (ساموري طوره Samory Toré) من قبائل (ساراكولا) أو (الماندانج)، ولم يكن إلا زعيماً لعصابة قليلة، وليس له حظ كبير من العلم بالدين الإسلامي، إلا أنه وراء ستار الدين دأب على مهاجمة السكان الوثنيين ونهبهم وبيعهم بيع الرقيق. ولما شعر بقوة الجيوش الفرنسية نقل مركز قيادته من النيجر الأعلى إلى أعالي غينيا، ثم إلى أعالي ساحل العاج حتى نهر فولتا، وأخيرا أسره الفرنسيون في إحدى المعارك في عام **1898**. وكان من آثر حروبه القضاء على كثير من السكان الوثنيين، وتمهيد الطريق أمام انتشار الإسلام في تلك الربوع.

وسائل انتشار الدعوة:

لم يكن انتشار الدعوة الإسلامية كما رأيناه كما رأينا مستمراً ومتواصلا في إفريقيا الغربية، إذ أنه اصطدم بمقاومة عنيفة من بعض السكان الوثنيين، مثل (البامبارا) و(الموسي) وانحاز الإسلام إلى المناطق الجافة من السودان؛ إذ وقفت أمامه قسوة الجو المشبع بالرطوبة على الساحل، وكثرة الغابات الملتفة التي لا مسالك فيها، والمستنقعات المنتشرة في تلك الأرجاء، وكثرة الجماعات الوثنية وتنوع عقائدها، وعداؤها لكل أجنبي عنها، وكذلك قوة المماليك الوثنية ذات الكثرة العددية في شرقي الساحل، حيث الملوك هم الرؤساء الدينيون، وهم الذين بيدهم إنزال الغيث والإتيان بالخوارق. كل هذه العوامل حالت دون تغلغل دعاة المرابطين، كما حالت دون زحف الجيوش الإسلامية.

ولهذا استطاعت بعض القبائل الكبرى أن تحتفظ بمعتقداتها القديمة، إما بفضل قوة نظامها الاجتماعي الديني (كما في البامبارا والدوجون) أو بفضل متانة نظامها السياسي مثل قبائل (الموسى)، أو بفضل وعورة موقعها الجغرافي في الأرجاء النائية أو الجبلية مثل قبائل (لوبي) وقبائل (باوتشي) في شمال حوض نهر (بنوي Benoué) أحد فروع نهر النيجر، أو بفضل شكل حكمها اللامركزية ذي النزعة الاستقلالية، حيث لا يخضع الفرد فيه لرئيس. وهو نظام لا يستسيغ أفراده التقيد بوضع جديد مثل قبائل (بوبو).

وقد لجأت الجيوش الإسلامية في فتوحاتها إلى تخيير الوثنيين بين خصال ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب. ومهما يكن من أمر فإن انتشار دعوة الإسلام في غالب الظروف لم تقم على القسر، وإنما قامت الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون من المرابطين، لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم. وكثيراً ما انتشرت الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة،

وقد يحدث أن تستفيد الدعوة من الظروف كأن يخلو مكان الرئيس الديني في عشيرة وثنية، فيقوض بنيانها الاجتماعي، ويستجيب أفرادها للدعوة الإسلامية. وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر، هو أنه دين فطرة بطبيعته سهل المتناول لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، وسهل التكييف والتطبيق على مختلف الظروف، وأن وسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يتطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين. ولم يفرض الإسلام على الزنوج أن يغيروا من نظام معيشتهم أو تفكيرهم الديني. وسنوضح للقارئ أن كثيراً من القبائل الزنجية التي اعتنقت الإسلام احتفظت إلى جانبه بآثار كثيرة من عقائدها وعاداتها. هذا إلى أن عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام لم تكن غريبة عليهم، بل كانت تتمشى مع عقيدتهم القديمة في الاعتقاد بوجود إله خالق. وقد حبب الإسلام إليهم مظاهره البعيدة عن التكلف، مثل الثوب الفضفاض، والمسبحة، والكتابة العربية، والوقار الديني، وشعائر الصلاة، مما يضفي على المسلم مكانة مرموقة، وجاذبية ساحرة. فالذي يدخل الإسلام ولو في الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه قد ازداد من القوة الحيوية.

ولما كان الزنجي جماعياً بنشأته، ومعتزاً بانتسابه إلى جمعياته الدينية القديمة، فقد وجد في جماعة المسلمين وأخوّتهم خير بديل عنها، وخاصة في الأيام الأولي للدعوة، عند ما كان المسلمون قلة. ثم حلت عنده جماعات الطرق الصوفية وأتباعها الكثيرة محل الجمعيات الوثنية الماضية، في صورة أوسع وأعظم، وقد يحدث أن تجد الوثنية نفسها أقلية، وسط أكثرية مسلمة، فتعتنق الإسلام طوعاً تحت تأثير شعورها بهذا النقص، ولو أن بعضهم كان يسخر من صلاة المسلمين ويتخذ ركوعهم وسجودهم هزواً.

وبالرغم من أن الاستعمار الأوروبي أوقف زحف الجيوش الإسلامية فإنه مهد للإسلام سرعة الانتشار السلمي، بما أنشأه من الطرق الممهدة الآمنة، التي مكنت للمرابطين ودعاة الطرق الدينية والإشراف والتجار المسلمين من (الديولا) أو (الهوزا) أن يتجولوا بحرية حاملين مع سلعهم بذور الدعوة الإسلامية. وهكذا كانت التجارة وسيلة للتكفف. وقد مهدت لانتشار الإسلام عدة عوامل أخري، منها هجرة العمال من قبائلهم انتجاعا للرزق خارج القرية – وكذلك انتشار النقد في التجارة بدلا من المقايضة، وغزو العادات والأفكار الجديدة لكل ما كان قديماً،

وتناقض روح الاحترام للآباء والأجداد التي جرت بها عاداتهم، ولم يقف في طريق انتشار الإسلام أفراد، لأن هؤلاء رحبوا به إذ أشبع فيهم الروح الجماعية التقليدية وإنما وقفت أمامه الجماعات المتماسكة، وخاصة القبائل الزراعية.

ولما جاء المستعمرون إلى تلك الأقطار تضاربت سياستهم إزاء الإسلام، فنري الجنرال (فيدرب) رغما من أنه قاتل المسلمين في الجزائر وتغلب على جيوش الداعية (الحاج عمر) قد اتبع سياسة التفاهم والتقرب إلى زعماء المسلمين، واستغلهم لمصلحة الاستعمار الفرنسي وأما القائدان أرشينارArchinard ومانجان Magnin فأصبغت حروبهما مع (أمادو) ابن الحاج بالروح الصليبية المتعصبة. غير أن السياسة الغالبة على الحكومة المركزية وإدارة المستعمرات رسمت على أساس التفاهم مع زعماء المسلمين، لما كانوا يتمتعون به من الاحترام والنفوذ بين الناس ولو ظاهراً. هذا إلى تقدير المستعمر للدين الإسلام، لوضوح أركانه، وسهولة إدراكه، ومتانة مبادئه، بيننا لم ير في الوثنية إلا عقائد غامضة، معقدة متباينة، تعتمد على قوى خفية عنيفة تنزل الرعب في القلوب

. وكان هذا الملك الحكومي تشجيعاً أفاد منه الإسلام. فانتشر في يسر وتؤده. ومع هذا فقد لقيت تلك السياسة بعض المعارضة، (بريفيه Breivié) ونادي في كتابه (الإسلام ضد الوثنية في السودان الفرنسي **1923**) بأنه من صالح فرنسا استغلال زعماء القبائل الوثنية في تلك الأرجاء، لآن الاعتماد على الجماعات الإسلامية ينطوي على خطر أكيد على المستعمر. وكان من أثر الدراسات في أصل الأجناس البشرية التي قام بها (دلافوس) وآخرون من بعده أن بدأ الأوروبيون يتفهمون الديانات الوثنية ويقدرونها، حتى أن العالم (جريول) وقف موقف المدافع عنها. إلا أن هذه السياسة لم تؤثر في سرعة انتشار الإسلام، بل أن بعض الأقوام الذين كانوا يكافحونه كفاحا عنيفاً منذ أكثر من خمسة قرون، مثل قبائل (بامبارا) و(موسي) دخل الإسلام بين ظهرانيهم، ولم يقف بعد ذلك في سبيله موانع طبيعية، كالغابات الكثيفة المغلقة المسالك والمدن الساحلية ذات الجو المشبع بالرطوبة، بل كلها فتحت له مسالكها وأبوابها، وأصبح فيها من المسلمين جاليات ضخمة.

الإسلام في شرق السودان:

بدأ الإسلام في مملكة "كانم Kanem" الوثنية في الشمال الشرقي لبحيرة شاد، إذ اعتنق الإسلام أحد ملوكها في القرن الحادي عشر. ولعل الصلات التجارية وطرق القوافل الممتدة بين بحيرة تشاد وبين طرابلس عن طريق فزان كانت عاملا هاما في اعتناقه الإسلام. ولما طرده رعاياه في القرن الرابع عشر لجأ إلى الجنوب الغربي للبحيرة في منطقة (بورنو) التي صارت فيما بعد مركزاً لمملكة إسلامية عظيمة، وفي القرن السابع عشر أصبح الإسلام هو الدين الرسمي لمملكة (باجرمي) في شرق حوض نهر "شاري" الأدنى....

ولا يفوتنا أن نذكر أن وادي النيل كان من أهم المراكز التي زحفت منها الدعوة الإسلامية، فقد كانت مصر من أسبق الإطار لاعتناق الإسلام، إلا أن زحف الإسلام منها إلى الجنوب تعطل زمنا عند حدود السودان، بسبب مملكة "دنقلة" المسيحية التي حالت دون توغله في أول الأمر حتى عام 1350م

حيث فتحت تلك المملكة، وأسست فيها أسرة ملكية، باسم مملكة "الفونج" التي كانت من قبل مملكة وثنية زنجية. وفى غرب هذه المنطقة وشرقي بحيرة تشاد تأسست في القرن السادس عشر ممالك إسلامية في "واداي" و"دارفور" و"كردفان" وتسربت قبائل عربية مثل قبيلة "شوا" وغيرها إلى تلك المناطق حتى بحيرة تشاد. فلم تكشف قبائل تلك الممالك بدخولها في الإسلام، بل طبعت بطابع عربي، بسبب انتشار اللغة العربية في تلك الأقطار.

وفى 1821 غزا "محمد على" السودان وأسس مدينة الخرطوم، وتوغل خلفاؤه حتى بحيرة "ألبرت"، وشجعوا إرسال بعثات دينية إلى تلك الأرجاء، فالتقت هذه البعثات عند بحيرة تشاد بجماعات من المسلمين من ليبيا، منهم السنوسيون، ومنهم عرب من قبيلة "ولد سليمان" ولما استقل المهدي بالسودان أرسل رسله لنشر الدعوة الإسلامية في البلاد الواقعة غربا.

وأما سكان الجنوب (في المناطق الجبلية لشمال الكاميرون، وفى حوض نهر شاري الأوسط، وفى بحر الغزال وفي أعالي النيل) فقد ظلوا على وثنيتهم وقاموا كل تدخل بالقوة، ولم يحل ذلك دون وقوع قبائل أعالي النيل فريسة لتجار الرقيق، الذين اتخذوا (دارفور) و(كردفان) مركزاً لإغارتهم. وأشهر هؤلاء التجار (رابح الزبير) الذي مد غاراته إلى الغرب حتى بحيرة تشاد، وأسس له ملكا، واستنزف في تجارة الرقيق معين السكان من تلك المناطق، وظل في تلك التجارة الخاسرة حتى دخلت جيوش فرنسا تلك المناطق وقضت عليه حوالي عام **1900**.

أما في إثيوبيا (الحبشة) فإن الإسلام عند ما وفد إليها من الجزيرة العربية اصطدم بالهضبة الوسطي، التي كان يسكنها المسيحيون من قديم الزمن، فتحول الإسلام عنها إلى السهول والسواحل الصومالية ومنطقة هرر. على أن هؤلاء السكان وإن كانوا سوادهم من أصل حامي لا يدخل في موضوعنا. وأما السكان الزنوج الأصليون القاطنون على السفح الغربي للهضبة الوسطي وهي المنطقة الحارة الرطبة من إثيوبيا فقد ظلوا على وثنيتهم ووقعوا بدورهم فريسة سهلة لتجار الرقيق إلى زمن قريب.

وأما الساحل الشرقي لأفريقيا، المطل على المحيط الهندي فقد كان ينزل به الملاحون من العرب ومن الإيرانيين منذ القرن العاشر الميلادي فتألف من هذا الخليط شعب يسمي بالسواحليين، يدينون بالإسلام ويتكلمون برطانة بين العربية والزنجية المسماة لغة (البانتو Bantou) ولم يحاولوا بعد احتلالهم الساحل أن يتوغلوا في القارة، ولو أن تجارتهم كان لها رواج بداخلها، ولم يكف المسلمون عن ممارسة التجارة في تلك الأرجاء حتى بعد استعمار البرتغاليين الذين استفادوا من هذه التجارة الإسلامية.

ولما اضمحلت الإمبراطورية البرتغالية في القرن الثامن عشر، غزا سلطان (مسقط) أغلب الساحل لشرق أفريقيا، ونقل حاضرته إلى (زنجبار) التي كانت تتحكم في طريقين تجاريين عظيمين في داخل القارة لاستجلاب الرقيق والعاج والنحاس. يمتد أحد هذين الطريقين في الداخل إلى بحيرة تانجانيكا، ويصل إلى الكنغو. والثاني يمتد حتى بحيرة فيكتوريا.

وما زال أثر الطريق الأول ظاهراً حتى بعد القضاء على تجارة الرقيق؛ إذ ما تزال تسكن على طوله جماعات متفرقة من المسلمين ورغم أن بعض الملوك والزعماء اعتنقوا الإسلام أو حاولوا ذلك، فإن عامة قبائل (البانتو) وهم سكان الداخل ظلوا على وثنيتهم أو دخلوا المسيحية في عهد متأخر.

المناطق الإسلامية في الوقت الحاضر

جماعات الطرق الدينية:

يرجع الفضل الأكبر في نشر الإسلام بين قبائل الزنوج في إفريقيا منذ القرن الثامن عشر إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية الإسلامية. وقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعي، وما يتمتعون في ظله من يسر وأمن في أسفارهم للتجارة. كما أنه لم يحملهم من الشعائر الدينية إلا أداء الفرائض اليسيرة، ثم أنهم وجدوا في شيخ الطريقة إماما مزودا بقوي علوية، وفي حلقات الذكر تجلياً وتسامياً روحياً؟ كما أنه أشبع نزعتهم الطائفية التي تعبث في نفوسهم في وقت وأحد طمأنينة وحمية. غير أن التعصب لمذهب أو طريقة ما كان سبباً في مشاكل خطيرة، تحولت حيناً ما إلى حروب طاحنة.

وأقدم تلك الطرق طريقة (القادرية) التي نشأت في العراق في القرن الحادي عشر الميلادي. أسسها أشهر الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني وهم يتعبدون على مذهب الأمام مالك، ولهم أدعية وحلقات ذكر جماعية (حضرة) ولهم السبحة الكاملة (مائة حبة)، ويستغرق تعبدهم ساعات كثيرة من اليوم. ويشتهر من أتباع هذه الطريقة في إفريقيا السوداء شعبة (القادرية كونتا Kounta) التي يتبعها في جنوب مراكش مشايخ (سعد بو). وكذلك طريقة المريدين التي تكثر في السنغال فإنها أيضا شعبة من (القادرية كونتا).

أما الطريقة (التيجانية) فقد نشأت في شمال أفريقية في القرن الثامن عشر أسسها أحمد التيجاني المدفون بمدينة فاس. وتتميز هذه بتزامنها وشدة مناوأتها للوثنية ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى. روي التيجاني أنه رأي الرسول عليه السلام في المنام، وأنه أخذ تلك الطريقة عنه وقد فرض على أتباعه أن ينفردوا بصلاتهم عن بقية الجماعات الإسلامية. ولهم مسبحة خاصة بهم، توسطها خرزة تفصل الاثنتي عشرة حبة الأولى منها عن بقيتها. وانتشرت هذه الطريقة وهي طريقة الحاج عمر انتشاراً واسعاً في أفريقيا السوداء. وذلك أنها لا تتطلب من مريدها وقتاً طويلا ولا مجهوداً فكرياً. وتفرعت عنها في السودان شعبة(الحمالة) التي سنفصلها فيما بعد.

وبذلك يقف هذا المذهب موقف المعارضة من الحكام وأولي الأمر، من حيث المبدأ فقط، دون ما التجاء إلى العنف.

وهناك طريقة أخري وهي طريقة (الأحمدية) التي منشؤها الهند وهي مذهب ملفق من الإسلام والمسيحية، يدعو للتسامح وتحكيم العقل وقد وصلت هذه الطريقة إلى أفريقيا عن طريق الساحل في أعقاب الأوروبيين، بخلاف الطرق الأخرى التي جاءت عن طريق الصحراء. وليس لهذه الطريقة انتشار ملحوظ في إفريقيا.

الدعوة في أفريقيا الغربية:

كان الفضل في نشر الدعوة الإسلامية في إفريقيا الغربية للجهود الموفقة التي بذلها دعاة الإسلام من المرابطين المغاربة، وأغلبهم من أتباع الطريقة القادرية، وبعضهم من أتباع التيجانية. وقد أشتهر نفر من المرابطين بالتضلع في الشريعة والعلوم. وقد مهد لهم الاستعمار سبل الانتقال في تلك النواحي لنشر الدعوة، كما فتح الطريق أمام الفقراء الزهاد للتجوال في طلب الصداقات، وامتد نشاط هؤلاء جميعاً من السنغال إلى غينيا والسودان حتى ساحل العاج ومستعمرة نيجر الفرنسية

وأن التكفف باسم الدين هو أكثر الحرف ازدهاراً بين سكان (موريتانيا) وهي بلاد فقيرة، ولو أن بها مناجم قد تغير حالها مستقبلا ويدل الإحصاء على أن 70% على الأقل من سكان السنغال مسلمون. لا يوجد بها من الوثنيين إلا قبائل (سيريس) وسكان (كازامانس) الأدنى. ولما كانت قبائل (الأولوف) المسلمة تحيط بقبائل (السيريس)، فإن تسرب الإسلام إلى هؤلاء يزداد يوماً عن يوم. وأقدم القبائل الإسلامية في السنغال هي (التوكولير) وهي أكثر القبائل تزمتاً، وأشدها مراساً.

وأما قبائل (البيل) و(الماندانج) و(الساراكولا) الذين يسكنون صحراء (فرلو) وشرقيها فيهم مسلمون أكثر اعتدالا. وأما قبائل (الأولوف) التي تسكن غربي الإقليم فهي أكبر القبائل عدداً، وأحدثها عهداً بالإسلام، وأعظمها تسامحاً، فتري أعضاء مجالسهم البلدية في (سان لويس) و(داكار) يشتركون دون حرج في حفلات المسيحيين وجنائزهم وعيد القديسة (جان دارك) وغير ذلك مع أن كبار رجال الدين وأشهر المرابطين يسكنون هذا الإقليم نذكر منهم (بابكرسي) في (تفوان) وهو من التيجانية وكذلك عديلة (نوروسيدوتل) وهو حفيدا لحاج عمر تل، وهو رئيس المرابطين في داكار وحلقة الوصل بين المسلمين والإدارة الفرنسية في تلك الجهات وفى (كاولاك) يقيم (إبراهيم نياس)

وهو تيجاني ويمتد نفوذه الديني حتى شمال مستعمرة نيجريا. بينما نجد في بلاد (بأول) مركزين دينيين عظيمين في مدينتي (دجوربل) و(طوبة) يتبعان طريقة المريدين أما في الجنوب فهناك كتلة من الشعوب الوثنية تمتد غينيا الشرقية إلى ساحل العاج وأعالي نهر فلتا وساحل الذهب (وتوجو) و(داهومي) لم يستطيع الإسلام النفاذ إلا إلى جزء صغير منها في الشمال، ولاسيما الجزء الشمالي الغربي من ساحل العاج. مع أننا نجد التجار المسلمين من (الدولا) يذرعون تلك الأرجاء ويسكنون أحياء خاصة بهم في بعض المدن. وتدل البوادر على أن الإسلام أخد في الانتشار بين قبائل موسي ولكنه يلقي هناك منافسة شديدة من المبشرين المسيحيين، وخاصة في منطقة الساحل.

ويقدر عدد المسلمين في السودان الفرنسي بنصف سكانه، وهم قبائل (البيلو الساركولا والسنرهاي) وجزء من قبائل (الماندنج) وأغلب سكان المدن والطرق التجارية من المسلمين والكتلة المكونة من البامبارا والدجون وثنية. أما قبائل (بوزو) المشتغلون بصيد النهر فمسلمون أسميا فقط والمذهب السائد بين (البيل) و(السونرهاي) هو القادرية، وبين (الساراكولا) ورعايا الحاج عمر مذهب التيجانية. وتمتاز قبائل (السنرهاي) بوجود طبقة من المتعلمين تسمي (ألفا) Alfaوهي أكثر العناصر ثقافة في السودان الإسلامي، وخاصة في مدينة (تمبكتو). وكثير من هؤلاء تلقوا العلم في الأزهر. وعدا ذلك فأكثر المذاهب انتشاراً في السودان هو مذهب الحمالة.

والغالبية للإسلام في مستعمرة (نيجر) ويمكن تقسيم تلك البلاد إلى ثلاث مناطق: ففي الغرب على طول نهر النيجر نجد قبائل (جرماً) وهي تمت بالقربى (للسنرهاي) – تعتنق الإسلام مخاوطاً بعقائد السحر والجان والزار. وفى الوسط نجد قبائل (هوزا) وهي إسلامية على الطريقة التيجانية، وتعيش مع الوثنيين من السكان جنبا إلى جنب وفى الشرق – نجد قبائل (الكانوري) رعاية مملكة (بورنو) سابقا، وهم من أتباع الطريقتين التيجانية والقادرية.

وأما في شمال (نيجيريا) فيكاد التقسيم يكون مماثلا. والغالبية للإسلام في تلك البلاد، حيث يوجد مركزان دينيان (سوكوتو) و (كانو) وكثير من السلطنات المتفاوتة الراتبة. وفى الوسط يختلط الوثنيون والمسلمون، إلا أن الأغلبية للمسلمين في الغرب بينما الأغلبية للوثنيين. في الشرق. أما سكان الساحل فوثنيون. ويوجد بينهم عدد كبير من المسيحيين. غير أن الإسلام في الغرب قد خطا خطوة جديدة بين قبائل (يوروبا) التي أصبح نصفها قسمة بين الإسلام والمسيحية، وإن كان نصفا الباقي لا يزال وثنياً.

الدعوة في أفريقيا الاستوائية وشرق أفريقيا:

دخل الإسلام شمال مستعمرة (الكامرون) فطبعها بطابعة وكان ذلك أول الأمر في عهد إمبراطورية (بورنو) الإسلامية، التي حولت قبائل (كوتوكو) المجاورة لبحيرة تشاد إلى الإسلام. ثم ازداد عدد المسلمين بفضل غزوات قبائل (البيل) المسلمة في القرن الثامن عشر، إذ كان من أثرها دخول الإسلام في أعالي نهر بنوي (فرع من النيجر) وفى هضبة (أداماوا). أما في جنوب هذه الرقعة فقد اعتنق ملك (بامون) الإسلام في عام **1914** وأعلن أن الإسلام دين الدولة، غير أن أغلبية شعبة لم تتبعه ف ذلك وظل سكان وسط وجنوب (الكامرون) على وثنيتهم أو اعتنق بعضهم المسيحية. وأما سكان منطقة بحيرة تشاد فنصفهم مسلمون (الجزء الشمالي).

فقبائل (كانم) و(البيجرمي) و(واداي) من أقدم الشعوب التي دخلت الإسلام وتعتبر من أمنع قلاعه. غير أن تدينهم سطحي مشوب بالجهل. ويرجع ذلك إلى كثرة الشعوب وتباين أصولها، وإلى الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار الذي ساد تلك المنطقة إذ هي بلاد يكثر بها عبور السابلة والقوافل وتجارة الرقيق. ورغم ذلك فإننا نجد في (واداي) و(كانم) نظاماً ممتازاً للتعليم العالي وخاصة في (أبشر) عاصمة واداي لأنها على اتصال دائم بالسودان الشرقي وبلاد مصر حتى أنها يمكن أن تعتبر عاصمة دينية. وقد ظهرت بتلك البلاد حركات تقدمية حديثة. على أن هذا الجزء الشمالي من بحيرة تشاد لا يعتبر من بلاد الزنوج، لأن بها كثيراً من القبائل العربية. والمذهب الشائع فيها هو التيجانية إلى جانب نفوذ قليل من السنوسية. أما سكان جنوب بحيرة تشاد وخاصة قبائل (السارا) في حوض نهر (شار) الوسيط فيؤلفون كتلة وثنية عتيدة.

والسودان شرقي بحيرة تشاد حتى فاشودة ودارفور وكردفان مأهول بالمسلمين والجنس الأسود الحامي ولكن الجنوب عامة وهو موطن الزنوج الأصليين (مستنقعات بحر الغزال) ما يزال سكانه على وثنيتهم. وكذلك حال الزنوج القاطنين في السفح الغربي لهضبة الحبشة. ويجب التفرقة بين هؤلاء وبين السود هم الذين هم من أصل حامي وبين الساميين الذين من ألوان مختلفة والذين يقطنون في بقية الأقاليم. فهؤلاء يخرجون عن بحثنا في هذا الكتاب، كما يخرج عنه سكان السودان الشرقي.

وأما في ساحل إفريقيا الشرقي الإنجليزي فالمنطقة الساحلية كلها تقريباً تدين بالإسلام وأشهر مراكزة الكبرى مدينة زنجبار ورغم أن سلطنة زنجبار أسسها أمراء عمان فإننا نجد أن مذهب هؤلاء وهو مذهب الخوارج لا تتبعه إلا أقلية لا تذكر. وأن الغالبية العظمي للسنيين. وفى (كينيا) و(تانجانيكا) توجد مراكز إسلامية متفرقة. واغلبها من المهاجرين من مسلمي الهنود وهم من أتباع طائفة الإسماعيلية.

وأما بقية أجزاء أفريقيا فلم ينتشر الإسلام فيها إلا انتشاراً ضئيلا والمسلمون هناك أقليات ضعيفة فالإسلام يحيط إذن بالقارة من غربها وشمالها وشرقها من داركار (غرباً) على ساحل السنغال حتى يبلغ مدينة (كليمان) في موزنبيق البرتغالية. ويتسع عرضه تارة ويضيق تارة في شكل أشبه ما يكون بهلال يذكر الناظر إليه على الخريطة برمز الإسلام.

(ج) مظاهر خاصة بالإسلام بين الزنوج

العقائد والشعائر والأخلاق:

لما كان الإسلام ديناً نبت بين البدويين والحضريين من سكان الجزيرة العربية لم يكن موضوعاً للجماعات الزراعية من الزنوج[3].

[3]() اعترف المؤلف أنفا بأن "الإسلام دين فطرة سهل المتناول لا تعقيد فيه، سهل التكييف والتطبيق عل مختلف الظروف" راجع ص 79 من هذه الترجمة.

قال (مارتي) Marty وهو فرنسي وضع عدة مؤلفات عن المسلمين في أفريقيا الفرنسية الغربية:" إن ثوب الإسلام على الرغم من بساطته وسهولته لك يكم مصنوعا على قد الزنوج فأعاد هؤلاء تفصيلية على حسب قامتهم، واتخذوا منه زياً يلاءم مزاجهم". وقد عمل على تحوير شكله عاملان: هما البيئة الزراعية، والعقلية والوثنية.

ويقتضنا الإنصاف إن نقرر أن هناك بعض المثقفين الذين يقتنون مكتبات عربية تزخر بالمؤلفات الضخمة في الشريعة الإسلامية. ولكن إلى جانب هؤلاء نجد كثيراً من المرابطين جهلة لا يعملون من دينهم إلا الشيء اليسير، ومع ذلك نتبعهم الجماهير، وكل بضاعتهم منه شعاره العام، فيقولون إننا مسلمون وينكرون ما عداه من الأديان، وغالب الظن أن إسلامهم هذا إسلامهم هذا يستر وراءه آثاراً قلت أو كثرت من وثنيهم القديمة. ولكا كان اعتناقهم له يسيراً سهلا لم يغير من أوضاع حياتهم الماضية، فأحياناً يستمرون على هذه الأوضاع؛ ولكن الغالب أن يحصل تمازج بين عقائد الإسلام الوثنية، ويزداد الإسلام قوة شيئاً فشيئاً في البيئات التي يتمكن فيها الدين أو يكثر فيها الدعاة إليه وهكذا تري مظهر الإسلام يختلف باختلاف الناس والبيئات. وقد رسم (مارتي) وغيره من الباحثين صورة للمسلم العادي في إفريقيا الغربية الفرنسية قالوا ما مؤداه:

إن اعتقاد المسلم بالله يتمشى مع عقيدته الوثنية الأول، وهي أنه يوجد خالق أعظم للوجود، ينعم بالقوي الحيوية على جميع مخلوقاته، وخاصة مشايخ الطريقة التي ينتمي إليها وهم المرابطون. وأما محمد (النبي) أو (أمادوا) أو (دودو) فليس في ذهن المسلم الأفريقي صورة واضحة عنه، وإنما يعتبره صانعا للمعجزات يقوم بدور الآلهة الصغرى في الوثنية وهو الوساطة بين الله والناس. وقد حلت عقيدة الجن عند المسلم محل عقيدة الأرواح الخفية التي تعمر الأدغال، كما أن اعتقاده بالأرواح الحامية لكل أسرة، وبأرواح الموتى من الأسلاف الذين يرعون الأحياء وتقام لهم بعض الشعائر ما زال باقياً على حاله. وأما فكرة الثواب والعقاب في الآخرة فجديدة عليه. والاعتقاد بها أقل انتشاراً. والمسلم هناك يهتم اهتماماً شديداً بالشعوذة وبالشعائر الدينية الظاهرة وتحاشي الأطعمة المحرمة والنجاسات أكثر مما يهتم بالنيات والأفعال

ويحرص المسلم الأفريقي على أن يؤدي فروض الصلاة في مظاهرها مع مراعاة الدقة في تأديتها، من استقبال وركوع وسجود، ويري أن صلاته لا تكون صحيحة إلا إذا انتقل عنها وفى جبهته أثر التراب من السجود. وهناك المساجد الجامعة، وإلى جانبها زوايا من أكواخ القش أو مصليات صغيرة يحجزها عن الطريق إطار مربع من الحصباء. ويراعي المسلم تأدية فريضة الصوم بدقة تامة وخاصة في أوائل شهر الصيام، ولكنهم لا يمتنعون عن التدخين ولا عن مباشرة النساء. وتعطي الصدقة والزكاة لفقراء المرابطين، ويحتفل المسلمون بكل أعيادهم احتفالا كله بهجة وتسلية. وأما الحج إلى مكة فنادر، وقد تيسره الإدارة الفرنسية عن طريق الباخرة أو الطائرة لمن يرغب من الأثرياء. ولا يزال بعض الفقراء يؤدي فريضة الحج سيراً على الأقدام، ويحج الكثيرون إلى قبور الصالحين ومزاراهم في نواحيهم كمزار (طوبة) لطائفة المريدين، بينما تزور قبائل (الأولوف) مزار تيفوا ...

وقد بدل الإسلام مظاهر الحياة في البقاع التي دخلها من أمد بعيد فنجد في مدينتي (تمبكتو) و(جاو) مثلا الشوارع" ولو أنها ضيقة "

والبيوت ذات السطوح العالية، والأبواب الضخمة. وهي تشبه بعض الشيء مظاهر المدن في شمال أفريقيا. أما بقية القرى فلم يتغير شكلها بل بقيت علي وضعها القديم فالمساكن التهاون.القش أو بيوت بدائية من الطين. ويتميز المسلم عن بقية الناس بلباس فضفاض "برنس" وبالعمامة أو القلنسوة. غير أن كثيراً منهم يمشون عراة الرؤوس. وكذلك يراعي الناس تحريم لحم الخنزير، على أن شرب الخمر فيه شيء من التهاون ....

ولم يؤثر الإسلام في عادات المجتمع إلا تأثيراً طفيفاً. فالنساء غالباً غير محجبات في بيوتهن، وما زلن يتمتعن بحريتهن المطلقة كما كن قديماً والمرأة من قبيلة (الأولوف) شديدة الميل للتبرج والتعطر والتزين بالذهب. وهي تتفالي في إبداء زينتها للناس مباهاة وافتخاراً. وتظن العامة أن التحلي بالذهب يساعد على نمو البقول الزيتية. وتقام مراسم الزواج وفقاً للعادات القديمة، ولكن سن الختان خفضت عن ذي قبل أما مراسم الوفاة فتسير طبقاً للعادات الإسلامية. وتتغلغل الشريعة الإسلامية شيئا فشيئاً في المجتمع القبلي بفضل الأحكام الشرعية التي يصدرها رجال القضاء الإسلامي في تلك البلاد ...

ويقتصر تعليم العربية في تلك الأنحاء على مكاتب تحفيظ القرآن، حيث يقضي الطفل شطراً كبيراً من حياته في استظهار السور بلغة لا يفقهها، وأما المدارس فيدرس بها منهج ديني أعلى من منهج الكتاتيب، ولكن عقبة اللغة تضاعف مصاعب التعليم فيها.

المرابط يؤدي دور الساحر والكاهن معاً:

من المعروف أن الدين الإسلامي دين ديمقراطي المبادئ، ليس له كهنوت، غير انه توجد (أولياء) وهم أقطاب يحف بهم تبجيل أتباعهم من الأتقياء المؤمنين في شمال أفريقيا. أما في أفريقيا السوداء فنجد من وراء كبار المرابطين المثقفين من مشايخ الطرق طائفة كبيرة من المتصوفة في الدرجة الثانية، جمهرتهم من الجهالة، ولكنهم فرضوا أنفسهم على الناس باسم الدين أو مزاولة السحر. ولهذا بقي السحر الوثني القديم وعاش....

ونافس هؤلاء الدجالون الكهنة المتطيبين من الوثنين في صناعتهم، وبأساليب تكاد لا تختلف عن أساليبهم. فهم يصنعون ويبيعون التعاويذ وهي تمائم (أحجية) من الجلد بداخلها آيات قرآنية غالباً. وهم يستحضرون الجن بتلاوة العزائم. وكثيراً ما يتبادل هؤلاء مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى شتي الحيل والأساليب: فالمرابطون يقتبسون من الساحر يقتبسون من المرابطين تمائم من القرآن وتكهنات عن طريق تمائم من الحشرات والجعارين، والسحرة يقتبسون من المرابطين تمائم من القرآن وتكهنات عن طريق ضرب الرمل. وبهذه الوسائل انحدر الإسلام إلى الوثنية. وهكذا حل المرابط محل الكاهن والساحر. والعجيب أن كلما تضاءلت الوثنية في ناحية من النواحي أمعن المتصوف في الادعاء بالإتيان بالخوارق، وخاصة إذا كان في بلدة يمثل طريقة من الطرق يكون هو (خليفتها)، فحينئذ يجمع في يده سلطات روحية مختلفة: سلطة الرياسة، وسلطة الأجداد، وسلطة الشفعاء الروحيين، وهكذا حلت جماعات الطرق الدينية محل الجمعيات السرية الوثنية، وأصبح شيخ الطريقة يتمتع في نظرهم بالتقديس لأن الله أرسله هادياً. فدعواته وملامسته وريقه كل أولئك يوصل إلى الناس قوته الروحية وسره وبركته. وفى اعتقاد عامة الناس أن طاعته والخضوع له وتقديم النذور إليه ضمان النجاة من النار؛ لأن القوي التي تكمن في شخصه وفى مؤهلاته لا تنضب.

إلا أن كبار المشايخ الطرق القديمة وأفذاذ علمائهم المعرفين بالتضلع في الدين الحنيف لا يقرون أمثال هذه الاعتقادات، ولا يدعون لأنفسهم كرامات أو خوارق. وهم على فضلهم وسعة علمهم لا تعدو علاقتهم بمرديهم علاقة الأستاذ بطلبته. وتعتبرهم الخاصة المستنيرون مربين روحيين يوجهون النفوس ويبصرون الناس بأحوال القلوب.

وقد عرف من بينهم أولياء حقيقيون. ولكن العامة تنظر غليهم نظر تقديس، زعماً منهم أنهم حماة الناس في الدنيا، وشفعاؤهم عند الله في الآخرة. وقد بلغ نفوذهم بين قبائل (الأولوف) في السنغال أن حلوا محل أرباب الإقطاع في النظام السياسي القديم لتلك القبائل.

الطرق الصوفية المحلية: هذا التبجيل والتقديس لمشايخ الطرق هو الطابع الذي تتميز به طريقتان نشأتا في أفريقيا السوداء، وهما طريقة المريدين وطريقة الحمالين. ومؤسس الطريقة الأولي في السنغال رجل يدعي (أمادوبامبا Bamba) من قبيلة الأولوف وأوصله من (النوكولير). وكان من أتباع الشيخ (سيديه Sidiya)، ورغم أن (أمادوا) لم ينفصل انفصالا تاماً عن طريقة القادرية، فقد حرص على أن يجعل طريقته مستقلة بذاتها عن القادرية. وقد اضطهدت الإدارة الفرنسية ونفته من البلاد عدة مرات، لاشتغاله بالسياسة. غير أنه منذ عام 1912 قصر نشاطه على الأمور الدينية فقط. وعند وفاته في سنة 1927 كان عدد أنصاره قد بلغ قرابة 400.000 شخص يستوعبون أكريه سكان منطقة (بأول)، ويتجاوزونها إلى بلاد (كايرو Cayor) و(سالوم Saloum). ولا يزال إلى اليوم في مدينة (طوبة). ولا تزال أسرته على رأس هذه الطريقة...

والطريقة المريدية طريقة مبتكرة في تعاليمها. وصفها مارتي بأنها "تعاليم إسلامية تتسم بعقلية قبيلة الأولوف" وشعار هذه الطائفة اتخاذ الزراعة عملا أساسياً، واعتبارها أشرف الأعمال .... ولكي تحصل منها على أعظم قسط من الإنتاج، نظمت نفسها على أساس جماعي تعاوني، لكل فرد منهم نصيب معين من العمل، يقوم به تحت إشراف شيخ الطريقة من المرابطين، دون أن يشغل الفرد نفسه بأي هم آخر. ولما كان المرابطون هم المسئولين عن الحياة المادية والروحية للجميع، فقد أخذوا على عاتقهم ضمان الأمن العام، كما أخذوا على أنفسهم تبعة أوزار لناس. والقاعدة في هذا النظام الإقطاعي الشيوعي أن غلة الأرض كلها ملك الشيخ، وهو الرئيس الديني، وهو الذي يقسمها، فيخصص جزءاً منها للعمال على قدر حاجاتهم، ويرصد الباقي لأغراض الزراعة وللمصالح العامة، من شراء أرض جديدة واستصلاحها، إلى تأسيس المساجد والمدارس. غير أن هؤلاء الرؤساء الدينيين يتمتعون بشيء كثير من البذخ والترف، بينما نجد الشعب في حالة خضوع وبؤس شديد. ومن حسنات هذا النظام زيادة الرقعة المزروعة من الأرض زيادة عظيمة، واستغلال التربة الصالحة استغلالا مستمراً بلغ حد الإرهاق أحياناً. وهنا نري الناس في أدني حدود الإسلام، بل أن كثيراً منهم خرج عن حدوده؛ إذ يقدسون (أمادوبامبا) تقديساً يقرب من التأليه....

وأما طريقة الحمالة فقد نشأت في مدينة (نيورو) وهي من بلاد الساحل السوداني، وتقع على بعد 250 ك.م على الشمال الغربي م (باماكو) أسسها الشيخ (حما الله) وأصله من مسلمي البربر، وكان على جانب عظيم من الذكاء. بدأ دعوته بنفسه فلزم التعبد والتنسك، وكانت تعتريه حالات من لجذب والغيبوبة الروحية. وقد التف حوله جماعة من غلاؤه الأنصار، ظل عددها يتزايد يوماً بعد يوم. ويقطن تلك البقعة الفقيرة من الأرض جماعة من حاملي السلاح، كانت صناعتهم في الماضي اقتناص الرقيق. ولما بارت تلك التجارة تحولوا إلى التناحر والتقاتل فيما بينهم. وكان تأسيس هذه الطريقة إيذاناً بنشوب النزاع والشغب بين أتباع الطرق المختلفة؛ إذ باغت الحمالون سكان البلاد المجاورة لهم عام 1940 وأمعنوا فيهم تقتيلا حتى لم يفلت منهم طفل رضيع بل أحرقوا المصاحف، فألقت الإدارة الفرنسية القبض على الشيخ ونفته إلى فرنسا وتوفى في المنفى عام 1942

ولم يخلفه أحد على المشيخة، ولكن طريقته لم تتوقف عن الانتشار رغم ما طرأ عليها من تحريف قليل. ومن أصول تلك الطريقة أن يذكر اسم الله إحدى عشرة مرة فقط على المسبحة. ولذلك يفصل كثير من أتباعها الإحدى عشرة حبة الأولى بكرة من الزجاج. ومن هنا اشتهر الحمالون باسم (الإحدى عشرة حبة).

وهم يصلون صلاة القصر وهي رخصة قاصرة في التعليم الإسلامية على حالة الحرب أو الخطر أو السفر. وقد دأب أتباع هذه الطريقة على وسم جباههم وأيديهم وأظافرهم بالوشم الذي كان يسم به الشيخ ماشيته. ويتغنون في أذكارهم ويرفعون بها عقيرتهم في جلبة، وترميهم الطرق الأخرى بأنهم يستحلون الحرمات عقب حفلات الذكر. وهنا نجد الإسلام يتضاءل إلى أدنى حدوده، إذ نجد الحمالة يؤدون صلاتهم متجهين إلى مدينة (نيورو) لا إلى مكة كسائر المسلمين. وهم يغرقون في تقديس الشيخ (حما الله) إلى حد الإلحاد، حتى أن أحدهم وهو (يعقوب سلا Sylla)

كتب يقول: "إننا لسنا بحاجة لا إلى الله ولا إلى رسوله، وحسبنا شيخنا حما الله" وهم يناصبون العداء جميع المذاهب الإسلامية الأخرى، بله المسيحية. وحدث عام **1941** أن اغتال بعض أتباع هذه الطريقة جماعة من الفرنسيين في مدينة (بوبو ديولاسو) دون سبب ظاهر إلا أن يكون سبيلاً لدخول الجنة في زعمهم، وقبضت الحكومة على المجرمين وأعدمتهم، فقضت بذلك على هذه الطائفة من السفاكين. إلا أن أمثال هذه المذابح والاغتيالات المتكررة تدل على أن هناك خطراً كامناً يهدد بالانفجار في أي لحظة بسبب تلك المبادئ الهدامة التي لا تمت للإسلام بصلة.

المجتمعات المختلطة من الإسلام والوثنية:

درس بعض المختصين في علم أصول الأجناس كيفية اختلاط الإسلام بالعقائد الوثنية والأوضاع الناشئة من تجاورهما، فاستطاع عالمان فرنسيان هما (بالأندييه Balandier) و(مرسيه Mercier) بعد دراسة عقائد (ليبو) وهي قبائل تعيش من صيد البحر قريباً من (داكار)، حديثة العهد بالإسلام، إذ لم تعتنقه إلا عام 1900 – استطاعا أن يكشفا عن انقسام ديني عجيب في تلك القبيلة، فالرجال مسلمون، والنساء وثنيات. والرجال يتعصبون للإسلام تعصباً شديداً ويتذرعون بهذا التعصب ليستروا به تفاهة ما يعلمونه عن دينهم، وأما النساء فيقدسن الأرواح التي تعمر مختلف الأماكن ففي مدينة (روفسك) يعبدن آلهة القطط أو أم القطط، وفي حي بونيول Bounioul بمدينة دكار يقطن الإله (ندك Ndak)، وهو الإله الراعي للمدينة. وأما الأحياء الأخرى فيها فيرعى كلا منها أحد أبنائه. وما تزال المحاريب المنزلية والمحاريب العامة قائمة، تمثلها أوعية منصوبة في فناء الدار، حيث تقدم لها النساء القرابين من الحيوان والشراب. وتتزعم امرأة شعائر العبادة الجماعية وخاصة عند نحر القرابين السنوية استرضاء لآله البحر، لكي تجعل رزقهم من الصيد وفيراً. وكذلك تتزعم المرأة حلقات الزار..

وينتشر الاعتقاد بالسحر والعمل به بين الجنسين على السواء، فالنساء تحمل التعاويذ لتجنب الحمل أو لاتقاء الجنون، والصيادون يعلقون في شباكهم تعاويذ من جذور نبات أو قرون حيوان حتى يصيدوا صيداً كثيراً. وأصبح الساحر المغربي يستعمل أساليب السحر الوثني القديم. ولا يزال يخشى الناس هناك أذى السحرة القدماء المعروفين ويزعمون أنهم يستطيعون التحول إلى أشباح مخيفة أو إلى هواء أو حيوان أو حجر، وأنهم ينهشون لحوم الموتى. ويخشون إلى جانب ذلك الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ويسلبهم عقولهم وهو الذي حذر منه الإسلام.

وما تزال رقصة المطر، بما فيها من تهوس وتخبط، تقام بكامل صورها الوثنية بين قبيلتي (جرمة) و(السنرهاي) رغم اعتناقهما الإسلام وقد شاهدها (روش) وسجلها على شريط الصور المتحركة وهم يستهوون آلهة المطر بأنغام الموسيقى، ويزعمون أن تلك الآلهة تحل في أجساد نسوة بعينهن حين يرقصن فيصيبهن ضرب من الصرع والغيبوبة والهذيان أثناء الرقص. وعندئذ يجئ رجل يمثل السماء، ومعه ماء به بعض العشب المقدس، فيصبه في حفر من الأرض ثم يضحي بدجاجة أو بكبش.

ويتضح مما سبق أن كثيراً من العادات الوثنية ما تزال تمارس بين تلك القبائل. أما حالات الجذب والصرع فيرجح إنها وردت من الشرق (كذا) – جنوب بلاد العرب أو السودان –. وأعجب من هذا ظهور إله جديد في عام **1927** يسمى (حوكة) Haouka زعم أحدهم أنه جلب تعاليمه عندما كان بمكة، وهو إله عنيف يمثل القوة الوحشية، وقد اقترن ظهوره في تلك الأرجاء بحركات العنف والتحريق والتخريب والقتل حتى اضطرت الإدارة الحاكمة إلى تعقب أتباعه والقبض عليهم، ففرت بقاياهم إلى ساحل الذهب حيث توارت هناك.

نهضة الإسلام:

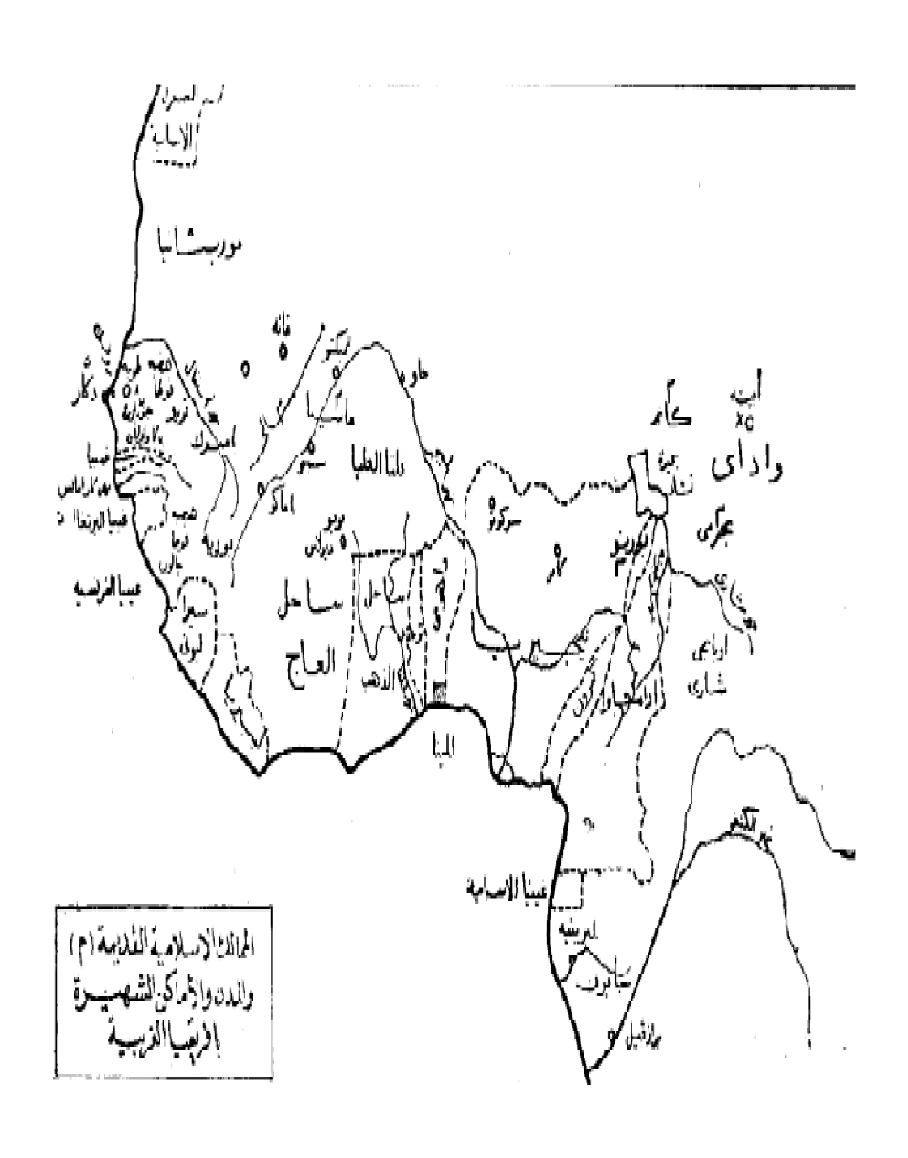
إذا كان الإسلام في أفريقيا السوداء يبدو في طابع غريب لا يمت إلى أصوله السليمة بسبب هو دخيل عليه لمخالطته للوثنية، أو لمسايرته لطبيعة التفكير الخاصة بالعقلية الزنجية، أو لتأثره بالتيارات الحديثة الطارئة عليه،

فإن الإسلام على رغم ذلك يسير بخطا سريعة نحوم نهضة دينية واجتماعية عظيمة. فمن جهة نراه أخذ في الاتساع بهيئة ملحوظة بين قبائل وثنية دأبت على مقاومته زمناً طويلاً، مثل قبيلة (موسى) وقبائل أخرى في جنوب مستعمرة نيجريا. ومن جهة أخرى نشاهد في بلاد سنغال وغينيا وهي بلاد إسلامية، اتجاهاً من الطرق الدينية إلى اقتباس النظام الاشتراكي الزراعي السائد بين طائفة المريدين..

ولكن أبرز تلك المظاهر وأقواها ذلك النشاط العظيم الذي دب في أوصال العالم الإسلامي، وحركة التجديد التي سرت في كيانه. فقد هب رجاله وعلماؤه ونادوا بوجوب تطهير الدين من الشوائب والبدع الدخيلة عليه. وقد بدأت تلك الحركة في سوريا والبلاد العربية الأخرى وقامت مصر بنشرها وإذاعتها، فوصل صداها إلى أقاصي أرجاء السودان، ونبه شعوبها العريقة في الإسلام فأيقظ فيها الوعي الديني، وخاصة حيث توجد الطبقات المستنيرة من المسلمين. وقصدت أفواج من طلبة (نيجيريا)

ومستعمرة (نيجر) إلى الجامع الأزهر في مصر، فتعلموا اللغة العربية ولقنوها أبناءهم، فأصبحت لغة التخاطب بينهم. واشتقت أواصر الصلات بين منطقة تشاد وبين مصر وشرق السودان الفرنسي، وأسست مدرسة دينية في مدينة (أبشر) في (واداي) وقد تحولت اليوم إلى كلية إسلامية.

وسارت حركة الإصلاح الإسلامي جنباً إلى جنب مع انتشار اللغة العربية ببلاد السودان، بفضل سهولة المواصلات، وأساليب الدعاية التي تتبعها الدول الشرقية. وكان من نتائج ذيوعها وتأثيرها ذلك الاقتراح الذي تقدمت به الجمعية الوطنية في السنغال، وطلبت في أن تكون اللغة العربية لغة إجبارية في برامج الدراسة. ولا شك في أن هذه ظاهرة خطيرة، تدل على مدى انتعاش الحركة التقدمية للإسلام بين الشعوب الزنجية، وتنبئ بما سيكون لها من آثار بعيدة المدى في الخطط المرسومة لحكم المستعمرات خاصة والسياسة الدولية عامة..



الممالك الإسلامية القديمة (م) والمدن والمراكز الشهيرة بإفريقيا الغربية

الفصل الثاني
المسيحية وحركة التنبؤ

(أ) كيف دخلت المسيحية أفريقيا؟

قبل عام 1800

دخل الدين المسيحي شمال أفريقيا في نهاية الإمبراطورية الرومانية، إلا أنه لم يتوغل في داخلية بلاد الزنوج، لأن غزو المسلمين لتلك البقاع الشمالية وحلول الإسلام فيها محل المسيحية، حال دون ذلك التغلغل. وكانت هناك مملكة قبطية في بلاد النوبة (شمال السودان) تسمى مملكة (مروى) Méroé ظلت على المسيحية حتى عام **1504** ولكن قضت عليها في ذلك التاريخ قبائل الفونج الوثنية.

حوالي ذلك التاريخ كان البرتغاليون قد أتموا استكشاف سواحل أفريقيا، وأسسوا فرضة سموها (المينا) أي المنجم (منجم الذهب) وهو الساحل المعروف اليوم باسم (ساحل الذهب)، كما أسسوا مراكز للتبشير فيها، وفي مصب نهر الكنغو. وفي عام 1491 اعتنق ملك الكنغو الدين المسيحي، وخلفه على العرش ابنه الذي عمد باسم (ألفونسو) وقد رسم أحد أبناء ألفونسو هذا أسقفاً. وتغير اسم العاصمة القديمة من (بانز كونغو Mbanza Congo) إلى اسم (سان سلفادور) ورسم عدد من أهالي البلاد قساوسة لها. ولكن تلك الجهود كلها قضى عليها اضطراب الأحوال السياسية، والثورات، والجيوش التي كان يستعين بها تجار الرقيق في أغراضهم، وارتداد الكثيرين إلى عقائدهم الوثنية القديمة. ولم يبق من كل ذلك إلا علامة الصليب التي اندمجت في المراسيم الوثنية، والتي وجدت آثارها بعد ذلك بقرنين من الزمان، فكانت دليلاً على أن المسيحية مرت بتلك الأصقاع. وفي سنة 1610 أسس البرتغاليون أسقفية مسيحية في (لواندا) Loanda بمستعمرة أنجولا ولكنهم لم ينجحوا في نشر المسيحية في داخلية البلاد.

وأما على الساحل الشرقي لأفريقيا فقد حالت دون نشر المسيحية هناك منافسة الإسلام لها واحتكار المسلمين للتجارة. إلا أن الملك (مونوموتابا) Monomotapa اعتنق المسيحية في **1561** واستقر الآباء اليسوعيون والدومنيكان في حوض نهر زامبيزي. وفي عام **1630** اعتنق زعيم (مومباسا) Mombaz المسيحية ثم رجع عنها واعتنق الإسلام. ولم يبق في أوائل القرن الثامن عشر من الذين اعتنقوا المسيحية إلا نفر قليل.

ثم دخل الأسبان ميدان التبشير، فأرسلوا عدة بعثات تبشيرية ودعا الملك (الادا) Allada ملك (داهومي) إحدى هذه البعثات بفكرة تكوين علاقات تجارية. ولكنه لما رأى أن غرض البعثة هو التبشير بالمسيحية، طردها من بلاده.

وقد لحقت هذه الخيبة بالفرنسيين أيضاً عندما دعوا (أنياباً) Aniaba أبن أمير ساحل العاج إلى مدينة فرسايل، وعمده القس المشهور (بوسيويه) Bossuet وجعل الملك لويس الرابع عشر أباه الروحي، فإن هذا الأمير ما كاد يعود إلى بلاده حتى ارتد عن المسيحية، وعاد إلى الوثنية دين آبائه.

وقام الفرنسيون كذلك بجهود تبشيرية في (جوال) Joal و (سان لويس) Saint Louis و(جوريه) Gorée إلا أن الحروب في القارة الأوروبية قضت على كل هذه المحاولات. ولم يبق منها إلا نواة صغيرة من الكاثوليك في مدينة (سان لويس).

وأما البروتستنت الهولنديون فبعد أن دمروا كثيراً من مؤسسات البرتغال على جميع الساحل الأفريقي، وخاصة في فرضة (المنيا)، استعمروا رأس الرجاء الصالح. وفي سنة **1665** نزل إلى هذه المستعمرة أول قسيس بروتستنتي. وفي نهاية القرن الثامن عشر كان تعداد المسيحيين عشرين ألفاً من البيض، وبضع مئات من العبيد. وحاول الألمان من جانبهم أن ينشروا المسيحية بين (الهوتنتوت) ولكنهم فشلوا في ذلك.

وفي بداية القرن التاسع عشر لم يكن للمسيحية قدم ثابتة في مكان ما من أفريقيا السوداء، إذا استثنينا نقطاً ضئيلة على الساحل، يدل على ذلك ما كتبه المبشر الإنجليزي (وليم شو) W. Show عام **1823** من مستعمرة الرأس.. قال: (أنه لا يوجد أي بعثة تبشيرية مسيحية فيما بين المكان الذي أعيش فيه وبين أبعد نقطة في شمال البحر الأحمر.

بعد عام 1800 في أفريقيا الجنوبية:

واستمرت الحال كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما توغلت حركة الكشف في قلب أفريقيا وكثرت بها البعوث الدينية التبشيرية، ثم تبعها الاستعمار الذي يسر عمل المبشرين، فكان هذا القرن هو العصر الذهبي للتبشير في أفريقيا. ولم يحل القرن العشرون إلا والمسيحية منتشرة بشتى مذاهبها والكنائس قائمة، والأمن مستتب في تلك الأقطار.

ففي أفريقا الجنوبية صارت الأكثرية للهولنديين البروتستنت بسبب هجرة البيض إلى تلك البقاع، وتوغل البوير في داخلية البلاد إلا أن هؤلاء لم يهتموا بالتبشير، وإنما اهتموا بشئونهم الدينية الخاصة، ولم تخطر لهم فكرة نشر المسيحية بين قبائل الزنوج إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن.

وكان من أول من اقتحم باب التبشير مبشران اسكوتلانديان وهما (موفات R, Moffat) و(ليفنجستون Livingstone). وبلغت الجرأة بالمبشر (روبرت موفات) أن أسس مركزاً للتبشير بين قبائل بتشوانا وان يقيم بين أظهرهم على بعد مئات الأميال عن وطن الرجل الأبيض في مستعمرة الرأس، فاستخف به هؤلاء في بادئ الأمر،

ولكنهم لما رأوه انضم إليهم في الدفاع عن بلادهم، ونجح في صد بعض الغزاة من القبائل الأخرى عنهم وكان سبباً في انتصارهم دخلوا المسيحية واعتنقوها أفواجاً. أما دافيد ليفنجستون وهو زوج ابنة (موفات) فقد استطاع أن ينصر أحد ملوك (بتشوانا) واسمع (سيشيليه Séchélé) يطرد حريمه، ويتنازل عن دعوى قدرته الإلهية في إسقاط الأمطار. والعجيب أن تعقب ذلك الحادث حقبة من الجفاف استمرت أربع سنوات، فرحل (لفنجستون) متجهاً صوب الشمال المجهول، فاستكشف نهر زامبيزي وكان (لفنجستون) مبشراً ومستكشفاً وطبيباً. جاهد منذ **1841** في كشف المجهول من أفريقيا، ورفع النقاب عنه. وهو أول من رفع صوته ضد تجارة الرقيق الشائنة. وكان لاستقامته وإخلاصه في خدمة الزنوج أكبر الأثر في نفوسهم. وقد عاب عليه الكثيرون تقشفه وتضحياته العظيمة، فرد عليهم بأنه لا يرى في ذلك عيباً، وإنما يرى فيه أرفع ما يتحلى به المرء. وكان يقول: "لقد كان للرب ابن وحيد لم يعرف حرفة غير التبشير والطب".

ولما أنهكه الضعف رفض أن يعود إلى أوروبا التي طبقت شهرته أنحاءها وفي فجر أول مايو سنة **1873** دخل أتباعه من الزنوج إلى مخيمه، بالقرب من (بنجويلو Banguélo) فوجدوه ميتاً وهو في وضع الصلاة؛ فنزعوا قلبه ودفنوه في الأرض الأفريقية التي أحبها وأخلص لأهلها، ثم نقلوا رفاته إلى الساحل، فأظهروا بذلك مدى حبهم وتعلقهم به.

وتلا ذلك تدفق البعثات إلى داخلية البلاد. فنزل (المثودست Methodistes) في (الكاب) و(الناتال) و(الترنسفال) حتى مستعمرة (روديسيا)، وأسس (البرزبتيريان Presbytériens) كلية (لوفديل Lovedale) لتخريج المبشرين والمعلمين، وانتشر (الانجيليكان Angelicans) في المدن والغابات، وتجنبوا أن يهدم تبشيرهم أي نظام قديم كان للقبائل، حتى غلا أحد مبشريهم وهو (كولينسو Colenso) في احترامه لتقاليد قبائل كافريه Cafrés لدرجة أنه أباح تعدد الزوجات، (فشلحته) الكنيسة لهذا السبب.

واشتركت في هذا السباق بعوث أمريكية بين قبائل (الزولو) وبعوث سويسرية في (الترنسفال) كما وجه الألمان جهودهم إلى التبشير في الجنوب الغربي لأفريقيا.

ونجحت البعثة الأيفانجيلية الفرنسية في اتصالها "بموشه" Mosheh أحد زعماء قبيلة (الباسوتو) حتى أنه دعاهم إليه لحمايته من غزو البوير. كما أسس (فرنسوا كولار F. Coillard) مركزاً جديداً للتبشير في روديسيا الشمالية، بين قبائل (باروتسي) وكان هو وزملاؤه من الذين انضموا إلى الرعيل الأول بتلك الجهات.

واستقر الكاثوليك في مستعمرة الرأس، والناتال، و (باسوتولند) ومستعمرة أورانج. كما استقر (الآباء البيض Péres Blancs) في روديسيا و (نياسالاند) حيث وجدوا المبشرين البروتستنت قد سبقوهم إليها في أعقاب (لفنجستون)، ثم عادت البعوث الدينية البرتغالية إلى نشر الدين المسيحي في مستعمرة أنجولا وموازمبيق بالاشتراك مع بعوث أخرى.

ويدل إحصاء عام 1953 عن توزيع المذاهب المسيحية بين الزنوج والملونين في اتحاد جنوب أفريقيا على أن الغالبية لمذهب (الميثوديست) 2.100.000 نسمة، ويليهم الانجليكان 800.000 نسمة، ثم الكاثوليك 650.000 نسمة، ثم البروتستنت الهولنديون 600.000 نسمة، ومذاهب أخرى 600.000 نسمة. والأكثرية العددية في روديسيا الشمالية للكاثوليك. بها أقلية بالنسبة لمجموع السكان، بينما يمثلون الغالبية في عدد من ولايات الاتحاد.

وترجع سرعة انتشار المسيحية في أفريقيا الجنوبية إلى عوامل عدة، منها وجود جالية كبيرة من البيض المسيحيين المتدينين، أثرت في السكان الزنوج المجاورين لها؟ ثم انحلال النظم القبلية بسبب خضوع القبائل للمستعمرين، واستخدام عدد كبير من العمال الزنوج، وتأسيس المدن الكبيرة. وقد بلغت دعوة المبشرين أسماع سكان الأدغال حتى أن (موشة) طلب منها تعليم شعبه. وأصبحت هذه المناطق مجالاً للتنافس الشديد بين البعثات التبشيرية.

وقد كافح رجال البعوث الدينية تجارة الرقيق، وعادة تعدد الزوجات، كما نشروا التعليم، بفضل ترجمتهم الكتاب المقدس إلى لغات تلك القبائل. وهكذا استطاع زعماء القبائل ومنهم زعيم قبيلة (بامانجواتو) المسمى (خاما Khama) أن يفرضوا المسيحية على قبائلهم دون أن يغيروا شيئاً من النظام القبلي القديم.

وتسود العنصرية المتطرفة كنائس المسيحية الهولنديين، إذ أن للبيض منهم كنائس يحظر على الملونين دخولها، أما المبشرين المثوديست والانجليكان والكاثوليك فلا يقرون فكرة العنصرية؛ ولذلك وجدت مذاهبهم رواجاً عظيماً بين الزنوج. وقد كان هذا التعصب العنصري سبباً في الزنوج أسسوا كنائس خاصة بهم مستقلة عن سائر الكنائس. وسنوضح هذه الظاهرة في موضعها من هذا الكتاب.

التبشير في شرق أفريقيا، وأفريقيا الاستوائية:

كان من أثر استرداد العرب لشرق أفريقيا، بعد أن طردهم منها البرتغاليون، أن نشط الإسلام وثبتت أصوله في تلك الجهات؛ إلا أن انجلترا بعد أن سيطرت على زنجبار سمحت في سنة **1800** لأحد المبشرين الألمان وهو (كرابف Krapf) بأن يؤسس فرعاً (لجمعية التبشير الكنائسي) في مدينة (ممباسا) فما أن أستقر حتى ترجم الكتاب المقدس غلى اللغة السواحيلية ثم توغل في الداخل، وبمعاونة زميله (ربمان Rebmann) اكتشف جبل (كليمانجارو). وفي عام **1860** أسس أسقف جزاير الاتحاد بعثة كاثوليكية للتبشير في مدينة (بوجامايو Bogomayo) على الساحل المواجه لجزيرة زنجبار، ولكن جميع هذه الجهود لزمت الساحل، ولم تستطع التوغل في الداخل بسبب وجودها في محيط إسلامي ثوي. فلم يدخل المسيحية إلا عدد قليل.

غير أن اكتشاف منطقة البحيرات العظمى من منابع النيل (التي اشترك اكتشافها لنفجستون وستانلي وسبيك) وما تبع ذلك من استعمار تلك الجهات وتقسيمها، يسر للبعوث التبشيرية النفاذ إلى داخلية البلاد. وبعد سنة **1880** استقر المبشرون الألمان في تانجانيقا، والانجليز في كينيا.

وفي أوغندا يوجه أخص أتت جهود المبشرين بأعظم النتائج في أقصر زمن. ففي عام **1874** قابل ستانلي (متيسا Mtesa) ملك تلك الجهة، وكان هذا متردداً في اعتناق الإسلام فعرض عليه اعتناق المسيحية. وفي عام **1876** بدأت البعوث للتبشيرية للبروتستنت. وفي عام **1878** بدأت بعوث الكاثوليك أن تفد إلى بلاده، فلما رأى انقسامها وتنافسها فضل ألا يعتنق ديناً، ومات على وثنيته. وخلفه على الملك ابنه (موانجا Mouanga) فاضطهد المسيحيين (أو القراء كما كانوا يسمونهم)، وأغلبهم من الشباب، وأمر بقتل بعض حشمه من الشبان حرقاً، لاعتناقهم المسيحية. وانتهز المسلمون تلك الفرصة، وحاولوا أن ينشروا الإسلام بالقوة في تلك البلاد، ففر (موانجا) ثم عاد إلى عرشه بحماية المسيحيين. وكان ازدياد أتباع هذين المذهبين سبباً في قيام مشاغبات بينهما لم تطل مدتها بل انتهت باعتناق غالبية قبائل (باجاندا) للمسيحية، مع أغلبية طفيفة للمذهب الكاثوليكي.

ويرجع الفضل في انتشار المسيحية في (أوغندة) إلى جهود (الآباء البيض) وهم في الغالب من أصل فرنسي، كما امتد نشاطهم حتى شملت المسيحية غالبية سكان منطقة (رواندا أوروندي Rouanda Ouroundi) وكذلك شرقي الكنغو البلجيكية. وأما في بقية الكنغو البلجيكية فقد أرسل إليها الملك (ليوبولد) الثاني بعثات تبشيرية بلجيكية أشهرها بعثة (الآباء شنت P. Schent) مع بعوث أخرى انضمت إليها. كما أرسل البرونسنتت الانجليز والأمريكيون ببعوث مماثلة. وقد وكلت الحكومة البلجيكية أمر التعليم إلى المبشرين. ويقدر المسيحيون هناك في الوقت الحاضر بما يقرب من ثلث سكان الكنغو.

وأما في الكنغو الفرنسية فإن جماعة (آباء الروح المقدس) استقرت فيها منذ عهد طويل، ومن بين هؤلاء الأب (أجوار Augouard) الذي كان قبلا في (جابون) ثم جاء إلى الكنغو عندما نزل بها (برازا Brazza) و(أجوار) هذا مبشر ومعمدان، ورحالة، أطلق عليه اسم (مطران أكلة لحوم البشر) وقد دأب على ارتياد مجرى نهر الكنغو ومستنقعاته وغاباته الكثيفة المجهولة بنشاط لا يكل ولا يفتر. ومن الطرائف أنه عندما قابل البابا (ليون الثالث عشر) داعبه هذا في حديثه قائلاً: "هل تأكل رعاياك هناك لحوم الآدميين؟". فأجابه أجوار: "نعم يا سيدي أنهم يأكلونه كل يوم" فقال البابا: "عجباً إنه لم يرد قط في سير الشهداء من القديسين من استشهد مأكولاً!" فأجابه "سأجعل نفسي القدوة يا سيدي في هذا النوع الطريف من الاستشهاد" ورد البابا قائلاً: "بربك لا تفعل! فقد لا تتبقى فضلة من جسدك نضمها إلى التراث المقدس". وقد بلغ التحمس بأحد المبشرين في كفاحه لعادة تعدد الزوجات أن يتزوج الفتيات (زواجاً صورياً) ليزوجهن بالتالي إلى أتباعه من الكاثوليك.

ولعل أعظم من اشتهر من المبشرين الفرنسيين الإنجيليين في جابون هو الدكتور شفايتزر Dr. Shweitzer (وهو الذي كرمته ملكة انجلترا ونال جائزة نوبل للسلام عام 1954)، هذا الطبيب الفذ موسيقى بارع، وفيلسوف حكيم، اعتزل العالم في قرية (لامبارينيه Lambaréné) في (جابون)، وأسس بها مستشفى لمعالجة السكان هناك. وكان مثلاً حياً للبعثة التبشيرية الفرنسية. وأقامت في الكامرون بعوث كاثوليكية بين السكان في جنوب كامرون، وأصبحت الغالبية هناك مسيحية، وكذلك قامت البعوث الانجليزية (البروتستنينية) والإيطالية (الكاثوليكية) بنشر المسيحية بمذهبيها بين سكان أعالي النيل في السودان.

غرب أفريقيا الفرنسية:

قامت في أول الأمر عدة عوامل حالت دون نشر المسيحية في ساحل غينيا. قوعورة الساحل والغابات الكثيفة، وحمى الملاريا، والحمى الصفراء، وتشتت السكان، وعدم اهتمامهم بالدين الجديد، كانت أسباباً في فشل الجهود التي بذلت، وقضت على كثير من مراكز التبشير بتلك الجهة. ولكن استعمارها في نهاية القرن الماضي يسير للبعوث التبشيرية شيئاً من الاستقرار. وفي القرن العشرين بوجع خاص جنت تلك البعوث التبشيرية ثمرة جهودها الشاقة وصبرها الطويل.

وفي عام **1815** عقب تحريم تجارة الرقيق، نزلت بعوث تبشيرية بروتستنتية إلى ناحيتين على الساحل، كان قد نزل إليهما عبيد يتكلمون الانجليزية ويعتنقون المسيحية إلى حد ما. أولاهما منطقة (ليبيريا) نزل بها قساوسة زنوج من الميثوديست، والأخرى (سيراليون) التي نزل بها مبشر ون لجمعية التبشير الكنسي، ومبشرون من الوزليين Wesleyens وقد أصبحت (سيراليون) مركزاً للبعوث التبشيرية إلى الشرق. ونزلت البعثة السويسرية من (بال) إلى (ساحل الذهب) وتمكنت من نشر المسيحية بين قبائل (فانتي Fanti) بفضل مثابرة رئيسها (أندريا رايسAndreas Riis)، ولكنها وجدت صعوبات بين قبائل (أشانتي)، بسبب عنادها واحتجازها لقسين من البعثة. وعندما خضعت تلك الجهات أصبح نجاح البعثات ميسوراً. وكان المثوديست من أسبق البعثات أيضاً هناك. واشتهر من قساوسة الزنوج الدكتور(أجرى) Dr. Aggrey وهو شخصية فذة أشرنا إليها في كتاب آخر[4].

[4] كتاب (تنبه الوعي السياسي في أفريقيا)

ثم أسست كنيسة مستقلة محلية، خاصة بالزنوج، تسمى (كنيسة البريسببيتريان في ساحل العاج)، ولكن التقارير عنها متحفظة جداً.

وفي عام 1844 أسس اثنان من المبشرين أحدهما من البيض هو تونزند Townsend والآخر زنجي من (بوروبا) هو (كروثر Crowther) فرعاً لجمعية التبشير الكنيسة في (أبيوكوتا Abéo Kouta). وبدأ بذلك نشر المسيحية في نيجيريا بفضلة صلة القربى التي تربط (كروثر) بقبيلة (اليوروبا)، وبسبب معرفته بلهجات القبائل في تلك الجهات. وفي 1854 رسم (كروثر) مطراناً وظل في وظيفته حتى توفى في عام 1891 واقترح بعض القساوسة الوطنيين أن يعمدوا الناس جماعات بدلاً من تعميدهم أفراداً. وعملت عدة بعثات لنشر المسيحية على ساحل جنوب نيجيريان كما عملت بعثات أخرى في شماليها.

وفي مستعمرة (توجو Togo) كانت تعمل بعثة (بريم Bréme) الألمانية إلا أنها اضطرت لمغادرة البلاد عام **1919** بعد أن احتلتها القوات الفرنسية والانجليزية في الحرب العالمية الأولى وتركوا وراءهم كنيسة لقبيلة (إيفا) أظهرت نشاطاً ملحوظاً، ولكنها لم تحاول نشر المسيحية بين القبائل الأخرى. واشترك عدة مبشرين من الانجليز والأمريكيين بشيء من النشاط في المنطقة الفرنسية بالاشتراك مع البعثة الفرنسية. وقد استطاع هؤلاء البروتستنت في (ساحل العاج) الإفادة من جهود (هاريس) المبشر وأكلوها لقمة سائغة. وسنتحدث هاريس هذا فيما بعد.

وقام بالتبشير بالمذهب الكاثوليكي ثلاث هيئات هي (آباء روح القدس) في الغرب و (بعثات ليون) على ساحل غينيا و (الآباء البيض) في مناطق السودان.

وكان لجماعة (آباء روح القدس) مراكز في السنغال منذ القرن الثامن عشر. وفي القرن التاسع عشر اندمجت فيها جماعة أخرى كان قد أسسها (الأب ليبرمان P. Libermann) وأثر عنه قوله عن الزنوج: "هؤلاء الناس يقترفون المعاصي أكثر من غيرهم لأنهم أكثر بؤساً وشقاء. ولابد لنا من أن نجعلهم يشعرون بجمال الحرية والمساواة التي ينعمون بها مع جميع عباد الله"، وكانت تلك الجمعية هي السبب في نشر المسيحية في غينيا السفلى وجنوب السنغال والمناطق المجاورة.

وأسس المنسنيور (برزياك M. Brésillac) جمعية (ليون) التبشيرية الأفريقية عام **1856** وكان هو أول مبعوثيها. نزل إلى مدينة (فريتون) في **1859**، ولكمنه مات بمرض الحمى الصفراء بعد ثلاثة شهور وخلفه (الأب بلانك P. Planque الذي وجه همه غلى إرسال البعوث المتوالية في مدى نصف قرن إلى ساحل غينيا دون أن يفارق وطنه. وفي سنة **1861** كان أول وفود (الآباء) على داهومي. ثم نفذت المسيحية إلى ساحل الذهب ونيجيريا، وقد نجح أحدهم (دورجير P. Dorgére) في الفوز بثقة الملك (بهانزان Behanzin) وكان وسيطاً بينه وبين الفرنسيين. وفي عام **1896** نزلت بعثة تبشيرية على ساحل العاج. وتاريخ جهاد تلط البعثات في السنوات الأولى كان سلسلة من التضحية والاستشهاد حيث قضت الحمى الصفراء وحمى الملاريا والفيضانات والحرائق على كثير من المبشرين حتى امتلأت بهم المقابر.ورغم ذلك كان هناك آخرون يحلون محلهم. وما جاء القرن العشرون حتى بدأت حركة تعميد الناس جماعات، فكان لزاماً أن يزاد عدد المراكز التبشيرية في الغابات وفي الأدغال على السواء.

وقد تأسست جمعية (الآباء للبيض للسيدة العذراء) الأفريقية في عام 188 أسسها الكربنال (لافيجري Labigerie) وهو أسقف الجزائر سابقاً. وقد أرسل في عام 1875 ثلاثة مبشرين (آباء) إلى الصحراء ليقصدوا إلى (تمبكنو) ولكنهم لقوا حتفهم على يد قبائل (الطوارق). وملا احتل الفرنسيون تلك المدينة في سنة 1894 تمكنت بعثة برئاسة (هاكار P. Hacquart) من الاستقرار فيها. ووجه جهوده لنشر التعليم كوسيلة لنقل السلطة والنفوذ إلى أيدي الطبقة التي تعلمت في العهد الجديد. ثم انتشر المبشرون في جميع تلك الأنحاء السودانية، ونجحوا في تنصير الوثنيين وخاصة في منطقة أعالي نهر (فولتا).

وإلى جانب ما قام به الآباء المبشرون، يجب أن نذكر الأعمال التي قامت بها بعثات التبشير النسوية. واشتهر من بينها (إرساليات الراهبات البيضاوات)، وراهبات (سيدة الرسل) و(الراهبات الزرقاوات) وراهبات (روح القدس). وكانت القوة المحركة لهذه الإرساليات النسوية تنبثق من شخصية عظيمة هي الأم (جافوهي Lavouhey) وهي ريفية من أسرة فلاحين وكان لها من العمر ثمانية وعشرون عاماً عندما أسست في عام **1806** جمعية (سان جوزيف الكلوني). وفي عام **1819** أبحرت على رأس أول إرسالية من الراهبات المبشرات فنرلن في بلاد السنغال. وكتبت هذه الأم تقول: (إنهم يصفون السنغال بأنها بلد سوء. ولذلك كان من الواجب أن أذهب إليها لأراها عن كثب ثم أكون لنفسي رأياً عنها) ورغم أنها مرضت هناك وكانت على وشك أن نقضي نحبها فإنها لم تكف عن العمل بهمة ونشاط نادرين، فحاربت تجارة الرقيق،

وعملت على رفع مستوى المعيشة بين السكان. وكثيراً ما كانت تقول علانية (إني أحب أفريقيا حباً ماً وأسجد شكراً لله على أنه سدد خطاي إليها) ثم رحلت عن السنغال إلى أمريكا الجنوبية في (في بلاد غيان) لتبدأ عملها هناك من جديد. وتركت وراءها في السنغال أخواتها الراهبات وقد تركت هذه السيدة في كل مكان حلت به آثاراً تنطق بإنسانيتها وأعمالها الطيبة حتى سماها لويس فيليب ملك فرنسا وقتئذ (هذا الرجل العظيم).

نشر المسيحية: طابعه ومناهجه:

لقد اشترك في نشر المسيحية في أفريقيا أكثر الأمم المسيحية. فالأمم الكاثوليكية على رأسها الفرنسيون، ثم البلجيكيون، والبرتغاليون والألمان، والايطاليون، والأسبانيون. والأمم البروتستينية وأهم الانجليز، ومنها كذلك فرنسيون، وسويسريون، وألمان، واسكندناويون، ودول جنوب أفريقيا، والأمريكان البيض والسود، وأشهر طوائفها الانجليكانيون، والميثوديست، والبرزبيتاريان، ويليهم اللوثريون، والكنائس الأمريكية وخاصة تلك التي يتبعها كثير من السود، وهي جمعيات الباتست Baptistes والأدفنتيست Adventistes وجمعية برج المراقبة Watch Tower. وقد اتهما هذه بأنها تتبع سياسة مسيحية مضادة للبيض، فمنعتها حكومة بلجيكا من دخول مستعمرة الكنغو.

والمذهب الكاثوليكي يسود المستعمرات الفرنسية والبلجيكية والبرتغالية. وأما المذهب البروتستنتي فيسود المستعمرات الانجليزية باستثناء يسير في بعض بقاعها.

هذا التسابق الشديد بين المذاهب المسيحية وخاصة في بدء نشر الدعوة حين لم تكن هناك عداوات شديدة، كان عاملاً من عوامل انقسام المجتمع الزنجي، مما دعى بعض أفذاذ المبشرين إلى استهجان ذلك التعصب المذهبي، الذي لا يتفق وعادات التسامح عند الوثنيين وخاصة على ساحل غينيا، حيث كانوا يرحبون بالآلهة الجديدة بين صفوف إلهتهم القديمة. ورغما عن ذلك فإن هذا التنافس كان له أثر سريع في تحويل الوثنيين إلى المسيحية ولعل أهم ما يلاحظ أن المسيحية على اختلاف مذاهبها قد اتفقت كلمتها وتعاليمها على مكافحة الرق والاتجار بالرقيق، كما احتجت هذه البعثات على تجارة الخمور وارتفعت أصوات هذا الاحتجاج من جانب البروتستانت والكاثوليك على السواء.

وكان اعتناق الدين المسيحي في مبدأ أمره ضئيلاً فردياً عندما كانت القبائل تحافظ على تماسكها وتكتلها. ولم تنتشر المسيحية نوعاً ما إلا بعد أن مال إليها واعتنقها بعض زعماء القبائل بغية الانتفاع بمعونة هذه البعوث التبشيرية في تمدين شعوبهم وفي حماية قبائلهم ضد البيض الآخرين: حكومات، أو جاليات، أو تجاراً جشعين. ولم تدخل المسيحية أفواج كبيرة من الناس برمتها إلا في زمن متأخر من القرن العشرين، بفضل عوامل أهمها احتكاكهم بالمدنية الأوروبية وانتشار المدارس والوسائل الاقتصادية الحديثة، إذ أن هذه العوامل كانت سبباً في تفكك مظاهر الحياة القديمة، وتغير أسلوب التفكير القبلي العتيق وكان من المنطقي أن يجد الزنوج في المذاهب المسيحية ما يشبع فطرتهم من التكتل في جماعة جديدة وأن يتذوقوا نوعاً من التفكير الحديث، فدعاهم كل ذلك إلى الاندفاع بجمهرتهم إلى اعتناق المسيحية، وخاصة عقب الحرب العظمى الأول. وفي العصر الحالي نجد الغالبية للمسيحيين في جنوب أفريقيا، ويوغندا، وجنوب كامروني، وعلى ساحل غينيا. وأما في المناطق المجاورة وفي الكنغو البلجيكية فنجد أن عدد المسيحيين يتراوح نين الثلث والعشر من عدد السكان. ولا يزال انتشار المسيحية في تقدم مستمر.

وكان من أهم العوامل في نشر المسيحية موقف التقدير الذي وقفه المبشرون أخيراً إزاء العوائد الوثنية الموروثة، إذ كان يعتقد بعض المبشرون في الزمن السابق أن المدنية الغربية والدين المسيحي وحدة لا تتجزأ. ولذلك أطلقوا عليها تسمية مفردة هي "المدنية المسيحية" ولم يكونوا ينظرون إلى الديانات الوثنية الزنجية إلا على أنها خليط من العادات أو الخرافات الشيطانية التي تقشعر لها الأبدان، فاحتقروها، وانصرف همهم إلى اقتلاعها ومحوها من نفوس الزنوج، لكي يشيدوا في مكانها الصرح الثقافي الذي نشأ بعيداً عن شواطئ أفريقيا. واليوم تقوم وجهة نظر جديدة تدعمها دراسة الأجناس، وهي على النقيض من النظرية القديمة، وقد نوعنا من قبل في هذا الكتاب باسم الأب "أوبيس P. Aupiais" وهو أول من نادى بتلك الفكرة، فكرة تقدير العقائد الوثنية. وهي فكرة تقوم على أن لكل حضارة قيمتها الخاصة بها. ولهذا كان من واجب المسيحية ألا تعمل على محوها، وإنما يجب أن تعمل على التغلغل فيها بدراستها حتى تستغل بذورها الصالحة. وذلك بتفهم نفسية الزنوج، وجعل عاداتهم القديمة عادات مسيحية.

ولذلك فرض على أعضاء البعوث التبشيرية، قبل أن يقصدوا تلك الجهات، أتباع خطة مرسومة تقضي بدراسة تلك البيئات دراسة شاملة، وتفهم نظمها الاجتماعية وعاداتها ولغتها. كما أنه يجب على المبشر أن يختلط بالسكان بالزيارة، وأداء الخدمات، والإخلاص في التعاون معهم في كل فرصة تتطلب ذلك. فالمدرسة، والمستشفى أو المستوصف، والمثابرة على الدعوة المسيحية، وترجمة الكتاب المقدس والتعليمات الدينية إلى لهجة السكان، ومعرفة الأعياد المقدسة وغرس شعور الأخوة المسيحية بين الجميع — كل هذه الوسائل يساعد دون شك على توسيع نطاق عمل البعثات ونجاحها. وهكذا يصبح المبشر هو الرئيس الروحي في تلك البيئة.

وقد ألقت تلك الوسائل الجديدة أعباء عظيمة على عاتق المبشر، فلم تعد مهمته قاصرة على التبشير، بل فرضت عليه واجبات إدارية لتنظيم شئون الجماعة، والعمل على إدخال شعور المسيحية في قلوب أفرادها. ولذلك أصبح القسيس الأبيض في حالة عجز عن أداء تلك الواجبات بمفرده، وصار من الضروري أن يستعين بعدد من المساعدين من أهالي البلاد؛ فمدرسو المدرسة، ورؤساء الجوالة،

ومعلمو العقائد والعبادات في الأحراش، هؤلاء المساعدون كلهم من أهل البلاد. ومهمتهم ارتياد الجهات النائية عن المدنية والقرية للتأكد من أن سكانها يحافظون على مسيحيتهم، وإنهم لا يتهاونون فيها، ولإقامة الشعائر بينهم، وبذل النصيحة لهم والدفاع عنهم.

وشعرت الكنيسة عند ذلك بوجوب اتخاذ خطوة جديدة بتعيين قساوسة من الأفريقيين، حتى يدرك الزنوج أن الكنيسة ليست احتكاراً للجنس الأبيض وحده، وإنما تشمل كل مسيحي بصرف النظر عن اللون والعنصر والثروة. وقد رأينا أن البروتستنت في جنوب أفريقيا وساحل غينيا كانوا أول من نادى بتلك الفكرة وتبعهم الكاثوليك بعد ذلك في القرن العشرين. هذا إلى أن البابا (بيوس الحادي عشر) والبابا (بيوس الثاني عشر) شجعاً ذلك الاتجاه. وفي الآونة الحاضرة نجد في أفريقيا خمسة من الأساقفة الزنوج، كما نرى عدداً من المدارس الكهنوتية التي ينتظر أن يتخرج منها أفواج من القساوسة الزنوج.

من هو الزنجي المسيحي:

كثيراً ما حامت الشبهة حول مدى تأثر الزنجي بالمسيحية، وعمق شعوره بها، بل تعدته إلى التشكك في صحة عقيدته وإيمانه بها جملة. فقد لوحظ أن سلوك الزنجي المسيحي كثيراً ما يخالف تعاليم المسيحية؛ إذ منهم من يسلك سلوكاً وثنياً، ومنهم من يخلط بين المسيحية والوثنية خلطاً عجيباً سنرى بعض أمثلة منه. والمشاهد أن الاعتقاد بالتعاويذ والسحر وأكسير الحب ما يزال سائداً بين الزنوج المتنصرين. (ولا غرابة في ذلك فمثل هذه الاعتقادات شائعة بين المسيحيين البيض أنفسهم وهم العريقون في المسيحية).

والحقيقة أن التنصير قد قلب أوضاع حياة الزنوج في بيوتهم ومجتمعهم حتى أنه كثيراً ما يوصف هذا الانقلاب بكلمتي: "الموت الشخصي"، "الاحتضار المعنوي" للدلالة على خطورة ذلك الانقلاب ودأب المبشرون دون هوادة على تحريم تعدد الزوجات، وعبادة الأسلاف، ونحر القرابين، والاعتقاد بالسحر، كما كافحوا عادة المهر وحفلات التلقين وتغالوا فحرموا الزنوج من متع الحياة البريئة في مجتمعهم،

حتى سلخوا كل من اعتنق المسيحية منهم عن قومه وعشيرته وعن مشاعر طفولته المحببة إليه، فأصبحوا طبقة غريبة عن مجتمعهم القديم. وكثيراً ما ينشأ الخلاف بينهم وبين العرف السائد – وخاصة في مسائل الزواج. أضف إلى ذلك ما يتعرض له المتنصرون من الزنوج في كل لحظة من هجمات ومجابهات لا يستطيعون مقاومتها، فيعودون إلى سابق عهدهم، إذ من الطبيعي أن يكون انصياع الإنسان إلى عادات طفولته ومداركها أيسر عليه كثيراً من أن يتغلب على نفسه ويلزمها عادات جديدة، وخاصة بين الذين لم يؤهلهم استعدادهم للاستقلال بالرأي، والخروج على صفوف الجماعة. وأما التحمس للدين فأمر هين فقد شوهدت جماعة حديثة العهد بالمسيحية أخذتها الحمية الدينية فحطمت تماثيل الجنود الرومانيين الذين تولوا صلب المسيح. ولكن الصعوبة في المثابرة وعدم الانقطاع. فالفرد الذي نشز عن قبيلته وتركها إلى المدينة قد قطع كل أواصره الأولى دون أن يغرس مكانها أواصر دينية جديدة، واستولت الفوضى والبلبلة على عقله فتجده حائراً بين عالمين، مشتتاً بينهما، يقع فريسة سهلة لكل دعوة جديدة.

غير أن الأمور لا تسير على هذا النهج عندما تكون الطائفة المسيحية راسخة قوية البنيان، قائمة على أسس سديدة، كالمساواة بين الرجل والمرأة، وزاول الفروق الاجتماعية، وعندما يكون التراحم والتعاطف سائداً بين أفرادها، إلى جانب الشعور بالمسئولية، وروح الطاعة والنظام الذي يشعر معه الأفريقي أنه وجد ضالته المنشودة في هذه الروح الجماعية التي كانت سبباً صرح نظامه القديم.

فبهذه الوسيلة تستطيع المسيحية أن تلقح النفسية الأفريقية، لتعمل على خلق هيئة اجتماعية جديدة، أوسع أفقاً من المجتمع القديم، فتفتح الأذهان إلى أواصر رحيبة وآفاق عالمية.

(ب) الكنائس المستقلة – كنائي المتنبئين

والعبادات المستحدثة

أن تلقيح الدوحة الأفريقية بفروع من الدوحة المسيحية أثمر في بعض الأحيان ثماراً مركبة، وعقائد ملفقة، يتغلب فيها عنصر النفيسة والعادات الأفريقية على المبادئ المسيحية، حتى طبعتها بطابعها. ونخص بالذكر منها ثلاثة مذاهب لا تمت إلا بصلة واهية للمسيحية الغربية الأصلية، بل تزداد بعداً عنها. وهي:

1 - الكنائس المستقلة:

كنائس يكثر عددها في المنطقة البروتستنتية، انفصلت من بعيد عن بعثات المبشرين التي أسستها، واتخذت لنفسها اتجاهات خاصة.

2 – كنائس المتنبئين:

وهي حركات فردية تلقائية، قام لها أشخاص تأثروا بالمسيحية قليلاً أو كثيراً، فأسسوا لأنفسهم كنائس في تعاليمها شيء من الابتكار.

3 – العبادات المستحدثة:

وقد نشأ هذه من محاولة تجديد الوثنية، عن طريق استحياء المبادئ المسيحية وتعاليم السحر والقوى الخفية.

وهذه الأنواع الثلاثة من العسير التمييز بينها إذ كثيراً ما نجدها متداخلة أو مندمجة. والطابع المميز لها هو الاتجاه السياسي. وهذا هو الذي حد إلى تسميتها حركات سياسية دينية. والمناطق التي تنتشر فيها هذه الفورات الروحية هي جنوب أفريقيا وساحل غينيا وأفريقيا الاستوائية.

مبلغ انتشارها في جنوب أفريقيا:

كان التمييز العنصري الذي يسود جنوب أفريقيا هو العامل الرئيسي لانتشار كنائس مستقلة للسود. ففي عام **1892** انشق القسيس الزنجي (موكونة Mokoné) عن بعثته التبشيرية، وأسس الكنيسة الأثيوبية في مدينة جوهانسبرج. وتبع ذلك تأسيس فوج من الكنائس المستقلة الأخرى، إما بسبب الانشقاق والتنافس على الرياسة أو بإلهام تنبئوى،

أو بتأثير الكنائس الأمريكية في أفريقيا. ففي **1945** أحصى (سندكلر Sundkler) عددها فبلغ **870** كنيسة، وفي **1948** زادت **123** كنيسة جديدة. وقد يتبع بعض هذه الكنائس عدد قليل من المؤمنين لا يزيد أحياناً عن **80** عضواً في إحداها، والبعض الآخر قاصر على النساء والأطفال.

ولهذه الطوائف الكنيسة اتجاهات.

(**أولاً**): الكنائس الأثيوبية، وهي بروتستنتية، إلا أنها تتميز بطابع سياسي مناهض لسيادة الرجل الأبيض، وشعارها "أفريقيا للأفريقيين".

(**ثانياً**): الكنائس الصهيونية، وقد أسسها أفراد بباعث من وحي ذاتي، لقي رواجاً بين الشعب. ويتميز بتعاليم هي خليط بين المسيحية والوثنية. وهذه هي الكنائس التي سنخصها بالذكر فيما يلي:

وطريق الإلهام في ذلك هو أن المتنبئ يتلقى إيحاء نفسياً يعتقد به إن الله هو الذي يأمره بمحاربة الرذائل وبتأسيس كنيسة لهذا الغرض، ويمنحه الرب غلى جانبه ذلك القدرة على إبراء المرضى. وفي العادة يخلفه ابنه بعد موته. وقد تتمتع أمه بنفوذ عظيم في الكنيسة.

ونظام هذه الكنائس يتسع لعدد من القساوسة في درجات مختلفة، تختلف باختلاف الرتب الكهنوتية... وأما شعائرها فمنقولة عن الكنيسة البروتستنتية، بالإضافة إلى شعائر مأخوذة من الكاثوليكية أو الوثنية: والموعظة الدينية الصاخبة وسيلة من وسائل إثارة المشاعر، حيث يشترك الحضور في أناشيدها في جلبة ظاهرة وحركات جثمانية جماعية. ثم يتبع ذلك مراسم الاعتراف بطريقة علنية مكشوفة، على غير المألوف. ثم تعقب ذلك جلسة إبراء المرضى وترديد أناشيد الابتهالات.

وأهم شعائر التطهير من الخطايا هو التعميد بغمر الجسم كله في الماء لكي تزول عن الشخص جميع خطاياه. وقد يعاد غطاسه مرات، على أن يكون الماء جارياً، لأن له خاصية محو خطايا الإنسان. والاعتراف بالخطايا علينا يرفع عن المرء كل معاصية وأوزاره. وتفرض بعض الكنائس على المذنب أن يتناول مسهلاً لكي تتطهر روحه. وقد يكون التقيؤ أو الاغتسال بالصابون وسيلة مؤدية إلى النتيجة نفسها، وهي التطهر. ويفرض على جميع مشيعي الميت من تلك الطائفة أن يتطهروا تطهراً كاملاً، بأية وسيلة كانت من هذه الوسائل، عقب الانتهاء من تشييع الجنازة.

والأحلام وسيلة من وسائل الاتصال بالرب.. وأما ظهور الملائكة فأمر عادي لديهم. ويراعي المتدينون أداء عبادة الصوم. ولا تستطيع المرأة أبان الطمث أن تنال قداسة حلول المسيح. وتحرم تلك الطائفة أكل لحم الخنزير والدجاج والدم، كما تحرم تعاطي الأدوية إذ أن الإبراء من الأمراض المستعصية نتيجة لحلول الشيطان في الجسم أو لأعمال السحرة أو لارتكاب الذنوب. وتتخذ هذه الحالات مظاهرة متعددة أهمها تسرب أفعى إلى معدة الرجل أو رحم المرأة. ولا يراه المرضى يقف المتنبئ فيضع يده على موضع العلة في الشخص، أو يلمسه ببرقعه وهو يصيح بأعلى صوته: (أخرج منها أيها الشيطان) وقد ينهال على المريض ضرباً بعصاه، كي يطرد الشيطان من جسده (وقد يطلب بعض المتنبئين نحو ذبيحة لهذا الغرض) فيصرخ المريض ويرتعد وبذلك يتخلص من الشيطان ومن أوزاره دفعة واحدة.

وللروح القدس شأن عظيم في تلك الكنائس، لأنه يحل في أجساد المتنبئين. وقد يزور بعض الصالحين فيصرخون وينطقون بعبارات لا تفهم. وقد يوصى الروح القدس رجلاً ما يتعدد الزوجات. ويمنح الروح القدس هؤلاء المتنبئين قدرة الكشف عن الأشياء المغيبة، وخاصة الذنوب الكامنة، والكوارث المستقبلة، وسحر السحرة وحماية الناس من أذاهم.

والإشارة إلى ما جاء في الايحيل وإلى النبي موسى وإلى الرسل تدور على ألسنتهم دائماً، وهو مون بتطبيقها في حياتهم اليومية. وأما المسيح فتارة يعتبرونه ملكاً وتارة يهملون ذكره، لأن المتنبئ قد حل محله بينهم. ويعتقد بعض السود في مسيح ملون مثلهم، يسكن السماء ويقف على باب الجنة، وأنهم إذا مروا بحرم كنائس البيض حرموا من دخول الفردوس. وبهذه الوسيلة ثأر الزنوج لأنفسهم أيما ثار من التمييز العنصري للجنس الأبيض.

الكنائس على ساحل غينيا:

نجد بالمثل على ساحل غينيا كنائس مستقلة. وأشهرها "الكنيسة الأفريقية المتحدة" في نيجيريا. وهي تبيح لأتباعها تعدد الزوجات. ويرجع الفضل في نشر المسيحية في تلك المستعمرة إلى المتنبئين. وأشهر هؤلاء قاطبة هو المبشر (هاريس).

من هو هاريس؟ William Wadé Harris.

(وليم واد هاريس) زنجي من قبيلة (جريبو) التي تقطن جمهورية ليبيريا. وكان في أول حياته نوتياً ككثير من مواطنيه، ثم أصبح بعد ذلك بناء، وانضم إلى طائفة (الميتوديست) وتلقى على يدهم مبادئ الدين المسيحي، ثم اشتغل مدرساً بإحدى المدارس. وفي عام **1910** ثارت قبيلة (جريبو) على حكومة ليبيريا، فقبض على هاريس وسجن. وهناك نزل عليه الوحي وهو بين جدران السجن، إذ زعم أن الملاك جبرائيل هبط عليه، وبلغه رسالة نبوته، ثم حل فيه الروح القدس "كما ينزل الثلج على رأس إنسان" برداً وسلاماً.

فلما انقضت مدة السجن غادره وبدأ دعوته بالدين المسيحي في موطنه. ثم هاجر عام 1913 – 1914 إلى ساحل العاج الأدنى. وصادف أن كانت تلك المستعمرة تجتاز أزمة روحية عصبية، بسبب نزول الرجل الأبيض فيها مستعمراً، وما أعقبه ذلك من الانحلال في النظام الاجتماعي القديم، وتحول الأهالي عن وثنيتهم إلى الاعتقاد في السحر، حتى تغالوا في اتخاذ التعاويذ ولم يفلح المبشرون إلا في عدد قليل منهم لا يزيد عن الألف إلى المسيحية. وفي غمرة يأسهم هذا ظهر (هاريس) فحدثت المعجزة التي وصفها الأب (جورجو Gorju) قائلاً "كان عندما يرتفع صوت هاريس تتساقط التماثيل رماداً، وينزل كاهنها عن قدسيته مختاراً، فتهرع إليه قرى بأكملها لتعتنق المسيحية على يديه، ويتبعون باهتمام كل حركاته على طول طريق موكبه، وكان يسير وهو يتوكأ على عصا طويلة ثبت في رأسها صليب من الخشب، وتتبعه ست نسوة يلبسن البياض كما يلبس هو، ويسميهن تلميذاته، وكان يذكر الله في صوت رنان، برطانة انجليزية خاصة، لا يفهمها الناس Pidgin English

فكانت تترجم إليهم. ويصاحب تبشيره وخطبه توقيع خشخة في قرعة جافة. وكان يأمر عباد التماثيل أن يلمسوا صليبه فإذا فعلوا ضرعوا على الأرض وصاروا يصرخون فيحنو عليهم ويهدئ من روعهم، ويأمرهم بإحراق أصنامهم بأيديهم. ولقد دخل المسيحية على يديه أكثر من **100.000** من الزنوج فكان يعمدهم بوضع الكتاب المقدس فوق رؤوسهم، ورش قطرات من الماء عليهم، كما كان يبرئ المرضى ببركة الكتاب المقدس. وكانت تعاليمه سهلة بدائية، مأخوذة عن كتاب العهد القديم، ومؤداها أن الله غيور شديد العقاب لمن يتوانى عن تنفيذ وصاياه. وكمان يحض الناس، على العمل، والطاعة لأولي الأمر، والاعتدال في شرب الخمر، ومراعاة الراحة في أيام الآحاد. وعاد عيشة التقشف والتعفف عما في أيدي الناس، رافضاً كل هدية تقدم إليه. وكان يعلن أنه ليس إلا طليعة لمت سوف يخلفونه ويعلمون الناس ما جاء في الكتاب المقدس. ولكن أتباعه أفرطوا وأساءوا وأحدثوا الفتن، وخشيت الحكومة عواقب ذلك الاضطراب، وخاصة أن الحرب العالمية الأولى كانت على أشدها فألقت القبض على هاريس ورحلته. ولكنه قبل مغادرته الميناء جعل يواصل مواعظه وتعميداته وهو على الرصيف في انتظار الباخرة، وجعل يوصي أتباعه بالسكينة والهدوء.

وقد استقبلت البعثات البروتستينية طائفة من أتباعه حديثي الدخول في المسيحية، ولكن تحريم تعدد الزوجات الذي كان يتعارض وعادات البلاد حداً ببعضهم إلى الاحتفاظ باستقلالهم. ولذلك نرى في تلك الجهات (وخصوصاً في منطقة لاهو العظمى) كنائس هاريسية، ذات شعائر شبه بروتستينية. وتقضي تعاليم (هاريس) بمحبة الله، وحب ذوي القربى، ومعاملة الزوجات بالحسنى، وتحريم السرقة، وتوصي بالجد والعمل، وتبيح تعدد الزوجات. وتقام العبادة ثلاث مرات في الأسبوع تحت رعاية أحد قدماء الطائفة. ولكل فرد من أفرادها الحق في إلقاء الموعظة. وأما الصدقات التي تجمع في الكنيسة فترصد للشئون الدينية. وهذه الطائفة الهاريسية تمجد الأب والابن فقط دون العذراء. وليس في تعاليمهم اعتراف ولا مراسم تنصير.

ولقيت حركة التنبؤ ضروباً من الانشقاق. فالمتنبي (أكيه) Aké الذي استغله أحد زعماء القبائل (أوبودجي سوبوا) كان يستعمل خمر (البرنو) من درجة 45% في إقامة مراسم المناولة إلا أن الحرب العالمية الثانية قضت على واردات خمر البرنو Pernod وقضت على مذهبه في الوقت نفسه.

وثمة متنبي آخر هو (جارك بريد) Garrick Braid قام بالدعوة لنفسه حوالي عام 1915 في الجانب الشرقي من نيجيريا، وادعى أن روح النبي (إيليا) حلت في جسده، واشتغل بإبراء المرضى، ولقيت دعوته نجاحاً لا يقل عن نجاح (هاريس) إلا أن مذهبه تدهور عندما اتجه إلى استعمال أساليب السحر، والدخول في السياسة، فقبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه. إلا أن صاعقة من السماء قتلته فمات وهو متمتع بكل صفات النبوة!!

ومنهم (سامسون أوبون) Samson Opon وهو من أشرار قبيلة أشانتي، اعتنق المسيحية وهو في السجن، ثم نزل عليه الوحي وبشر بالمسيحية بين عشيرته التي انصاعت إليه بعد أن كانت تناصب هذا الدين العداء من قديم. غير أن نجاحه أثار موجة من الفزع بين المبشرين والوثنيين على السواء فاحتالوا عليه حتى سقوه زجاجة من الخمر كانت سبباً في إعادته إلى حظيرة الشيطان، وكانت في نهاية دعوته.

والنجاح الذي أصابه هؤلاء المتنبئون يرجع إلى المظهر المسرحي الذي ظهروا به، وإلى طلاقة لسانهم، وبساطة التعاليم التي بشروا بها، وأنها من عند الله الذي وهبهم قوة النفوذ، والقدرة على إبراء المرضى، وأنهم لم يوجهوا تبشيرهم لفرد واحد، وإنما وجهوه لجماهير الناس جملة. وبذلك لمسوا الروح الجماعية الفطرية عند هذه الجماهير. وكانت محافظتهم على العوائد القبلية، وتيسيرهم على الرجال بإباحة عادة تعدد الزوجات، عاملاً من عوامل نشر هذا الضرب من المسيحي؛ كما أن فخامة الحفلات الدينية العديدة حلت في نفوس الأهالي محل الحفلات الوثنية القديمة. أضف غلى هذا كله أن المتنبي كان زنجياً صميماً مثلهم فتبعوه.

وإلى جانب هذه الكنائس المستقلة، وإلى جانب دعوة هؤلاء المتنبيين التي تقترب قليلاً أو كثيراً من تعاليم المسيحية، نجد مذاهب أخرى جديدة ملفقة من المسيحية والوثنية، أو تحاول النهوض بالوثنية القديمة وتجديدها. فمثلاً ظهر المتنبئ (أدايه Adaé) في ساحل العاج وكان يعمد بالروائح العطرية، ويحرم الأوثان، وكانت له وصايا عشر منها: لا تتلف زراعة جارك، ولا تغرر بامرأة دون أن تدفع لها أجرها. ومن هؤلاء طائفة (جورو Goro) في (داهومي) التي قاضت لتقضي على انتشار السحر وتبعها خلق كثير. وفي ساحل العاج قامت امرأة تسمى (ماري لالو Marie Lalou) سنة **1946**، وهو العام الذي منحت فيه المستعمرة حق التصويت العام، وأسست مذهباً دينياً يعرف باسم (ديما) أي الرماد، دعت فيه إلى أن يكون للناس مطلق الحرية في اعتناق دين بلائمهم. وانتشر مذهبها انتشاراً واسعاً، وتأسست له معابد فيها الصليب ويسوع. غير أن الشعائر تتخللها أساليب السحر القديم.وأعجب من ذلك كله أن النائب الأفريقي في البرلمان (هوفويت Hophouét) اتخذه الناس إلهاً هو وأمه زمناً طويلاً، على غير علم منه، ولم ينصرف الناس عن تأليهه إلا بطلب صريح منه.

تطورات المسيحية في أفريقيا الاستوائية:

ظهرت في أفريقيا الاستوائية عدة طوائف شاذة من أصل أمريكي وأشهرها (جمعية برج المراقبة) أو (شهود يهوه) وهي طائفة تدعو إلى المساواة، والفوضى الاجتماعية، وعدم دفع الضرائب، وعصيان السلطات الحكومية. ويزعم فريق من هذه الطائفة أن مسيحاً ثانياً سينزل إلى الأرض تنبه عذراء سوداء، وأنه سيرسل الصواعق على الجنس الأبيض.

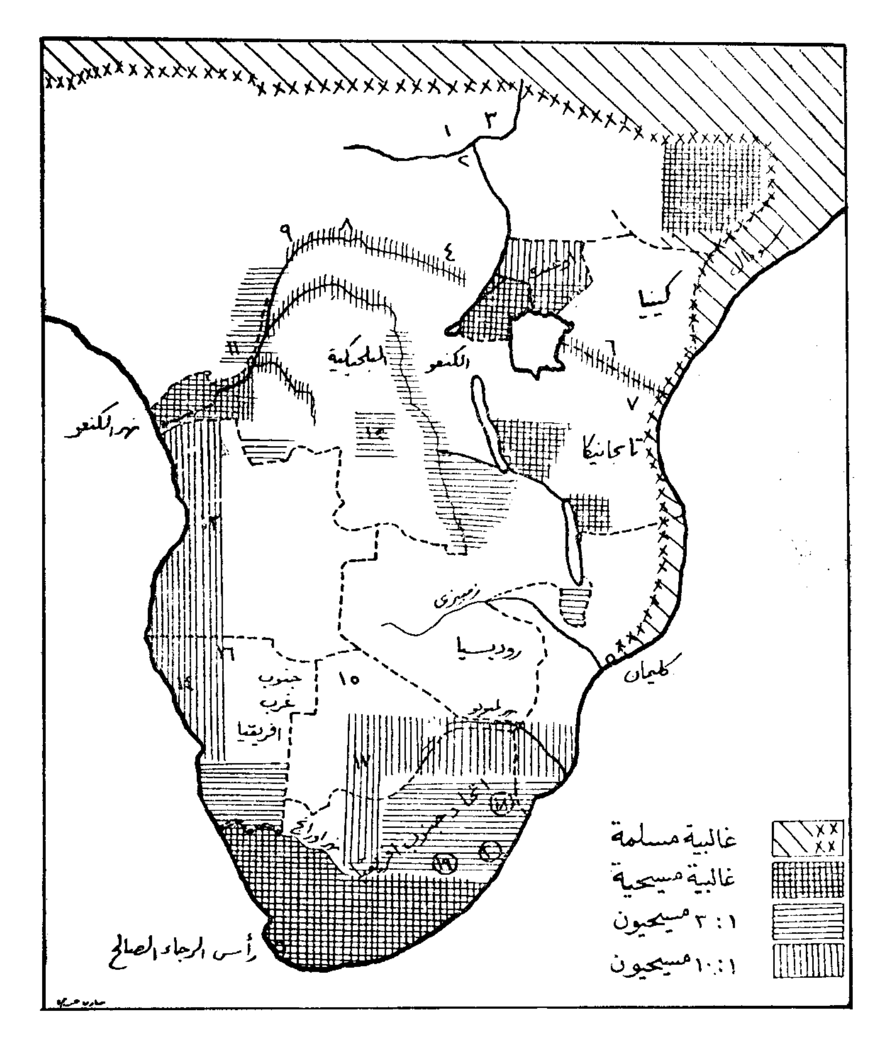
وفي عام 1921 ظهر في مستعمرة الكنغو البلجيكية متبني آخر بين قبائل باكونجو هو (سيمون كمبانجو) أو (جوبزا Gounza) وكانت دعوته مسيحية. غير أن بعد نفيه أعلن إلى أتباعه أنه هو (المسيح المنقذ) وأنه هو (ملك السود) وهو الذي سيعيد إليهم وحدتهم، ويفتح أمامهم أبواب السماء).

وظهر عند قبائل (بلالي Balali) وهم جيران (باكونجو) حركة سياسية اسمها (الودية) أسسها (أندريه متشوا) في الكنغو الفرنسية. ثم تحولت إلى حركة دينية. وقد مات مؤسسها سجيناً سنة 1942 غير أن أتباعه لا يصدقون أنه مات، ولا يزالون ينتظرون عودته. وهذه الدعوة كسابقتها ما هي إلا رد فعل ضد نفوذ البعوث التبشيرية، والسلطات الإدارية. وهي محاولة من أهالي البلاد لبناء وحدتهم من جديد، والعودة إلى تماسكهم الاجتماعي الذي هدمه الرجل الأبيض.

وفي قبائل (أوبانجي) عضو برلماني كان قسيساً، يدعى (بوجاندا Boganda) يقول عنه مواطنوه أنه هو "الشمس والسماء" وأن في قدرته أن يحول الإنسان إلى حيوان، ويسمون البطاقة الانتخابية "تعويذة بوجانذا".

وأشهر هذه الحركات وأحدثها ما فعله شعب (الكيكويو Kikouyou) في (كينيا) وهو شعب غالبيته من المسيحيين، إذ قام بتأسيس كنائس مستقلة عندما حرم المبشرون بعض العادات الأفريقية الموروثة، وجادلهم أهل البلاد في ذلك قائلين" إننا لا نجد في الكتاب المقدس ما يحرم الختان أو تعدد الزوجات؛ بل على العكس نجد فيه نصوصاً عن الختان ونحر الذبائح للقرابين".

ولم يقم دليل واضح على الصلة بين هذه الكنائس المستقلة وبين حركة (ماوماو) وإنما هي حركة سياسية ضد البيض المستعمرين، استغلت قدسية القسم وروابط اليمين، ولا شك أن استعمال القسم في أغراض فردية يعد إحياء لسنة دينية قديمة. فمن هذه الناحية فقط يمكن أن تعد حركة (ماوماو) تجديداً دينياً.



أفريقيا الاستوائية والجنوبية

أسماء القبائل وأرقامها

1 – دنكا	Dinka	11 – بالالي	Balali
2 – نوير	Nuer	12 – لوندا	Lounda
3 – شلوك	Chillouk	13 – أفيمبوندو	Ovimboundo
4 – أزندة	Azandé	14 – هوتنتوت	Hottentot
5 – باجندا	Baganda	15 – بوشيمان	Bochiman
6 – كيكويو	Kikouyou	16 دامارا	Damara
7 – سواحيلي	Souahili	17 – بتشوانا	Betchouana
8 – باندا	Banda	8 – سوازي	Souazi
9 – مانجا	Manja	19 – باسوتو	Basouto
10 – باكنجو	Bacongo	20 – زولو	Zoulou

خاتمة

تذكرنا الاتجاهات الدينية الراهنة في أفريقيا، بحالة الإمبراطورية الرومانية في عصر شيخوختها واضمحلالها، فإنه لما حقق الرومان وحدة البحر المتوسط قضواً أيضاً على استقلال دويلاته السابقة، وترتب على ذلك الوقت نفسه أن فقدت العبادات الوثنية المحلية، التي كانت تمارسها سكان المدن، مغزاها وقدسيتها في نفوسهم. وأصبح الأفراد بتحررهم من الأوضاع الدينية القديمة على استعداد تام لاعتناق الديانات الشرقية الواسعة الانتشار، مثل ديانات أوزيريس ومترا، والديانة المسيحية. ولم تتغلب هذه على ما سواها من الديانات الأخرى إلا بعد أن عانت الانقسام في صفوفها وبعد أن تفرقت شيعاً متناجزة متناحرة وهذه المحن والانقسامات إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى تحمس كل فريق للدين الجديد، وعلى مدى تعدد الثقافات وتفاوتها في الإمبراطورية الرومانية.

واليوم يبدو مثل هذا الاضطراب في أرجاء أفريقيا السوداء وترجع أسبابه إلى تغلغل الاستعمار فيها، وما تبعه من نشر الأمن بين ربوعها، وتحسين سبل المواصلات، وازدياد التبادل التجاري، وتأسيس المدارس الحديثة. كل هذه العوامل قوضت الحواجز العتيقة، التي طالما حصرت حضارة كل شعب وديانته في دائرة مغلقة. وكان تدهور الوثنية بطيئة تارة وسريعاً تارة، تبعاً لبعد موطن القبيلة من المدينة الحديثة، ومراكز الاستغلال الاقتصادي، أو قربه منها.. وقد أصبح المتحررون منها أو التقدميون يتنكرون لديانتهم، ولا يجرأون على الجهر بأنهم وثنيون عباد تعاويذ، وفضلوا أن يسموا أنفسهم مسلمين أو مسيحيين، إذ يرون في ذلك شرفاً لهم بالانتساب إلى المدينة العالمية. ومع ذلك ما تزال الوثنية قائمة بين القبائل التي لا تقبل الهجرة من مواطنها. غير أن تطبيق تداول النقد والمدارس الحديثة والمبادئ السياسية الجديدة قد فعلت فعلها في هدم المجتمع الزراعي وسقوط هيبة رؤسائه الجديدة وتصدع الوحدة والطاعة المفروضة فيه. وكان تسرب الآراء الحديثة شيئاً أشبه بفيضان غمر أساس تلك الأسوار البالية، فتداعت أجزاؤها واندفع السيل ليكتسح كل ما وراءها.

كان كسب الإسلام لا قوام جديدة وراء منطقة العريضة في الشمال وإلى الشرق رائعاً حقاً، وكانت مطاياه إليها اللغات الواسعة الانتشار في التفاهم وهي لغات قبائل "أولوف" و"بيل" و"ماندانج" و"هوزا" والسواحيليين وكذلك كان للتجارة التي تنقلها القوافل شأن يذكر..

وأما المسيحية فقد رسخت أقدامها على الساحل الجنوبي وثبتت أصلوها فيه وهي تتقدم منه للقاء الإسلام وجهاً لوجه لتعترض زحفه إلى الجنوب. ترى أيهما ينتصر؟ الإسلام الشرقي أو المسيحية الغربية؟ يتنبأ البعض بأن مصائر أفريقيا كلها تتوقف على ما يتضمنه جواب هذا السؤال..

إلا أن المسألة بهذا الوضع فيها استهانة بطرافة العقلية الأفريقية، بدليل ظهور الطوائف المستحدثة ذات التعاليم المختلطة، وطوائف المتنبئين، التي أثبتت أن الوثنية القديمة لم تنقرض بل ما تزال باقية تبدل وتحول طبيعة كل شيء تمسه يدها ويتبين من ذلك أن أمثل الطرق إزاءها هو تلقيحها بالتدخل فيها والتمشي معها، وليس العمل على القضاء عليها. أن النفسية الأفريقية التي يتغلب فيها الوعي العنصري أكثر من الوعي القومي تستطيع أن تستمع صوتها للعالم على لسان أديان شتى ولهذا لا نستطيع التكهن بمصائرها التي تبدو في أنواع عديدة مثقلة بالسورة الدينية التي تنذر بالانفجار..

والحقيقة القائمة في العصر الحاضر هي تكاثر الطوائف الدينية فيها، بشكل يذكرنا بتكاثر الكنائس الدينية الشرقية بعد عصر القديس بولس وحتى هؤلاء الزنوج الذين ظن أنهم أصبح بمناي أمين عن عادتهم القديمة وأنهم تخلصوا إلى غير رجعة من قبيلتهم، واستقلوا برأيهم وشخصيتهم، ما تزال العقلية الجماعية مسيطرة على تفكيرهم فهم يحنون إلى التجمع ويحسون بحاجتهم إلى حماية الجماعة والتعبئة لها، إذ أنهم لما تجردوا من أواصرهم القبلية لجئوا غلى التدين بحثاً وراء أواصر جديدة. فإذا أخطأهم التدين انحازوا إلى حركات التحزب السياسية. وحتى هذه الأحزاب السياسية نفسها تنشد السند والقوة من الوجدان الديني أو تجد نفسها مغمورة به دون أن تسعى إليه.

إن روح الطاعة للسلطان المطلق الديني متأصلة من قديم في نفس الزنجي الإفريقي بدرجة لا يرضيه معها الانتقال بين عشية وضحاها إلى فردية ذات آراء نافذة متشككة ولهذا فهو شديد التعطش إلى المشاعر الجماعية، أياً كانت مبادئها، وأياً كانت تبعيتها.

لقد انتقلت أفريقيا السوداء من طور الخضوع القبلي غلى طور الإقدام واحتمال المسئوليات. ومن هنا كانت (دراسة الأديان بأوسع معاني هذه الكلمة، من أجدى الأساليب الحديثة لاستكمال الكشف عن أفريقيا السوداء..

الفهرس